رواية

ميادة خليل

نسكافيه مع الشريف الرضي

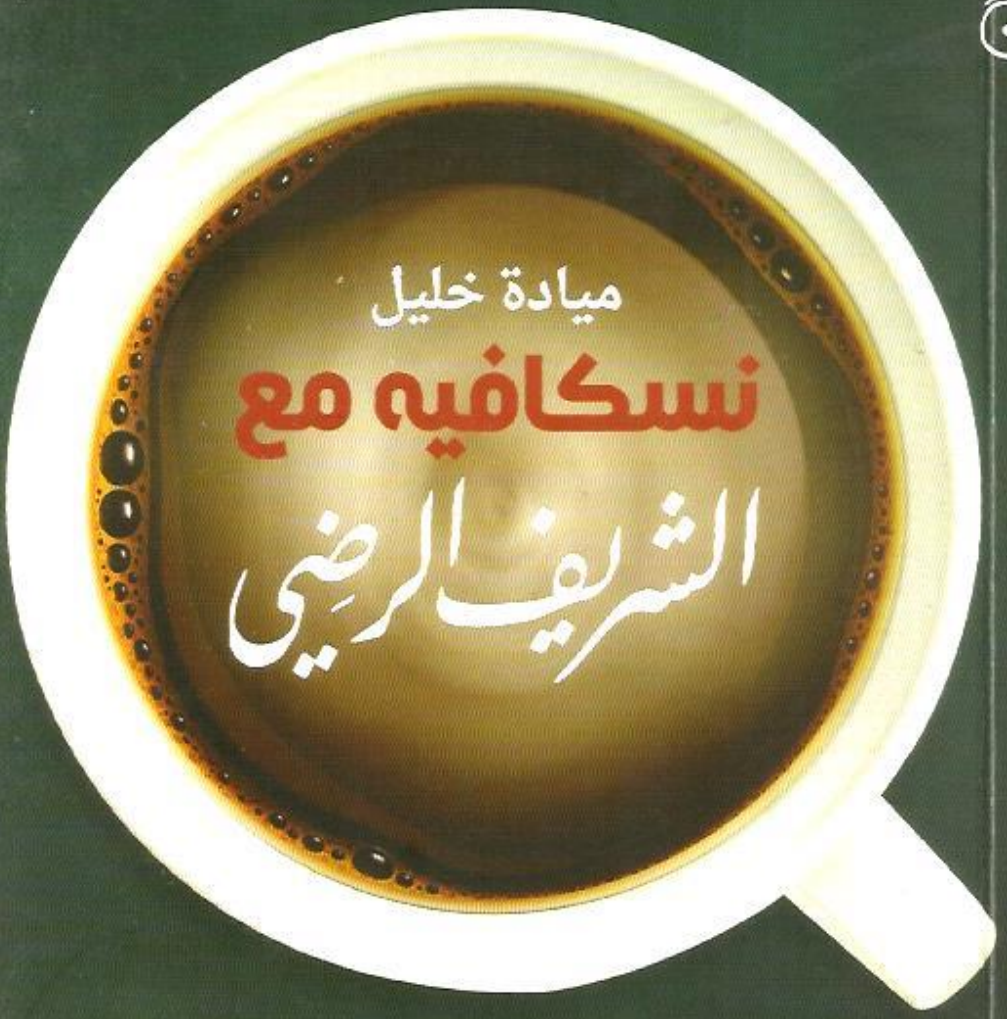

fb/mashro3pdf

المتوسط

من الرواية:

«آمنة، سأناديك آمنة، ما رأيك؟» ابتسمت له عندما قال لي ذلك. لقاؤنا كان دائماً في المكتبة. لكنه طلب مني عدة مرات زيارة شقته لمشاهدة لوحاته ورسوماته. «لماذا الخوف؟ عادي» قال عباس. آخر مرة قال لي ذلك كان غاضباً بعض الشيء «تعالي مع سارة وأحمد وخلود والجيران لو أحببتِ...». في نفسي أود لو أذهب معه فوراً إلى شقته لمشاهدة رسوماته، شرب القهوة، وربما يحدث شيء مما أتخيله كل يوم. ليته يلحّ قليلاً، يجرّني من يدي مثلاً، ويأخذني معه «عندما يزورنا أحمد، سنأتي إلى زيارتك، أعدك بذلك...» قلت له أخيراً.

فكرة زيارته تدور في رأسي.

- «طلب مني عباس زيارته، هل دخلتِ شقته؟» سألتُ سارة.

- «نعم، رأيت لوحاته، شربت قهوة معه. شقته جميلة ومرتّبة».

- «متى حدث ذلك؟».

fb/mashro3pdf

نسكافيه مع
الشريف الرضي

fb/mashro3pdf

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٦ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.
جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Nescafe Ma'à Al-Sharif Al-Radi ***by*** "Mayada Khalil"
Copyright © 2016 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: ميادة خليل / عنوان الكتاب: نسكافيه مع الشريف الرضي
الطبعة الأولى: ٢٠١٦.
صورة الغلاف: 123RF / تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-91-87373-67-1

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / جديد محلة حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

fb/mashro3pdf

ميادة خليل

نسكافيه مع الشريف الرضي

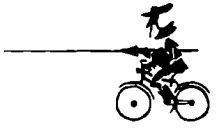

المتوسط

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

يزورونك في أحلك الساعات

كل أحبابك الذين فقدتهم

روبرتو بولانو

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

تَلَفّتُّ حَتّى لَمْ يَبِنْ مِنْ بِلادِكم دُخانٌ وَلا مِنْ نارِهِنّ وَقُودُ
وإنَّ التفاتَ القلبِ منْ بعدِ طرفِهِ طوالَ الليالي نحوكم ليزيدُ
وَلّما تَدَانَى البَيْنُ قالَ لي الهَوَى: رويداً، وقالَ القلبُ: أينَ تريدُ
ولو قالَ لي الغادونَ: ما أنتَ مشتهٍ غداة جزعنا الرمل، قلتُ: أعودُ

الشريف الرضي

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(١)

ماذا يعني أن تضع حداً لحياتك؟ أن تقرر هذا بنفسك؟ كان عليّ أن أفعل هذا بعد موتها، وبسرعة. لقد تأخّرت كثيراً.

في الحقيقة، أنا متّ بموتها. تحوّلت إلى جثة، أو آلة تكرّر الأشياء ذاتها حتى تتوقف عن التكرار والعمل لسبب ما. حاولت تقريب ذلك، أعني موتي، لكني فشلت.

لكن سلمى معي. تتحدث لي، تذكّرني بأشياء عليّ القيام بها، أو تنبّهني عندما أقترب من خطر ما، يحدث هذا كثيراً. في مرة، كدت أسقط في النهر، لم أنتبه إلى حافته، لولا أنها شدّتني من ذراعي وهي تصرخ «دافيد، احترس». هذه الأشياء بدأت تزيد - تدريجياً - بعد وفاتها، وجعلتني أنسى فكرة الموت. لم يكن هناك ضرورة لزيارة قبرها، أزوره لأنها أرادت ذلك، أن يكون لها قبر في هولندا قريب مني وأزوره بانتظام. زيارة قبرها تذكّرني بموتها. لا أراها، ولا أشعر بها هناك. وفي كل مرة أزور قبرها أسأل نفسي: ما جدوى الذهاب إلى هذا المكان، إذا كانت سلمى معك؟! لا أخبر أحداً بذلك. إني أراها، أسمعها، هي وجَدّتي وأموات آخرين. لقد اتّهموني كثيراً بالجنون.

أصنع لها القهوة كل صباح. أراها غالباً ما تقف أمام النافذة، تفتح النافذة، شعرها يتحرك مع نسمات الهواء. «حبيبتي» أناديها، لا تلتفت لي، تغيّرت قليلاً بعد موتها، ولكنْ لا بأس، يكفي أنها معي. «حبيبتي» مرة أخرى. لا ترد. تختفي.

fb/mashro3pdf

أتحدث معها لساعات طويلة، ولا ترد، تنظر لي فقط. أخبرها بكل شيء. كما لو أنها هنا، وليست هنا. معي، وليست معي.

في كل محاولة للموت، شيء يموت مني، ينتهي تماماً. شيء في روحي. لقد متّ على دُفعات.

كان يجب أن أفعل ذلك. جدّتي طلبت مني ذلك، هنريت «الموت بجرعة كبيرة من الدواء» وحتى سلمى طلبت مني ذلك: «ماذا تنتظر؟ اقتل نفسك...».

fb/mashro3pdf

(٢)

مات دافيد.

رجل يسكن في الطابق الثاني من البناية. مات منذ شهر - تقريباً - في شقته، ولم يعلم بموته أحد. أحد أصدقائه جاء لزيارته عدة مرات، ولم يفتح له الباب، لم يأتِ إلى المقهى حيث كانا يلتقيان ولم يردّ على اتصالاته منذ شهر. هذا ما أخبرتني به جارتي سميرة. لم يفتقده أحد آخر، حتى جارته الفضولية العجوز ريناتا لم تفتقد غيابه شهراً كاملاً.

أخرجوا دافيد جثة من شقته.

كنت أرى دافيد بين الحين والآخر، الحديث بيني وبينه كان لا يتعدّى التحية، والحديث عن حالة الطقس. «داخ، كيف حالك ميفراو؟» غالباً ما يبدأ هو التحية، «داخ» أردّ عليه، وأحاول أن أبتسم «الطقس جميل اليوم» ويهز رأسه ويضحك. أو «الطقس سيِّئ اليوم، هذه هي هولندا!» يضحك، وأضحك معه. اليوم عندما رأيته وهو يخرج جثة من شقته تذكّرت ابتسامته، وجهه، والدموع التي كأنها كانت تقف - دائماً - في عينيه.

تذهب سميرة إلى شقته لتنظفها كل أسبوع تقريباً، لكن سفرها إلى المغرب منعها عن زيارته لعدة أسابيع «قال لي آخر مرة إنه يريد السفر إلى لندن» قالت سميرة، «كان رجلاً طيباً وكريماً» ومع ذلك، سميرة كانت تعرف القليل عن حياته «لا يتكلم إلا إذا سألته، صامت طوال الوقت ... زوجي يقول إن دافيد مريض في عقله». حتى سميرة لا يتذكرها أحياناً: «منْ أنتِ؟» يسألها قبل أن يسمح لها بالدخول، وعندما تخبره أنها سميرة

fb/mashro3pdf

جارته وجاءت لتنظيف الشقة، يفكر قليلاً، يبتسم، ويرحب بها. وغالباً ما تراه يتحدث إلى نفسه «بصراحة، كنت أخاف منه أحياناً» قالت وهي تمسح أنفها بشالها «لن أسامح نفسي أبداً» ظلّت سميرة تلوم نفسها.

وعبر الدردشة، أخبرتُ الجميع أن دافيد قد مات، سعاد ومرتضى وعلاء وسارة وأحمد. لا أحد يعرف مَنْ هو دافيد، ولم يهتمّ بقصتي أحد.

fb/mashro3pdf

(٣)

سكنت هذه الشقة بعد خروجي من المستشفى. بيتر صديقي، وهيخو ابن أخي، هما مَنْ رتّبا لي كل شيء. المكان هادئ. لا أعرف كل سكان البناية، ولكني ألقي التحية على الجميع.

لا يزعجني شيء في هذا المكان عدا جارتي ريناتا الفضولية جداً، تتدخّل كثيراً فيما لا يعنيها، تلحّ بأسئلتها. تفاجأتُ أنها تعرف كل شيء عني. وعندما بحثت في الأمر اتضح لي أن صديقي بيتر الطيب قد أخبرها بكل شيء.

هيخو، لم يفارقني منذ محاولة الانتحار الأولى. معي دائماً، خاصة بعد خروجي من المستشفى. هاجر إلى أستراليا للعمل هناك منذ بضع سنوات. ترك فراغاً كبيراً في حياتي. لكننا نتواصل دائماً. باقي أفراد عائلتي لا علاقة لي بهم، حتى أولاد خالتي الذين تربّيت معهم. بعد سفري واستقراري في لندن لعدة سنوات انقطعت علاقتي بهم نهائياً. وعند عودتي إلى هولندا لم ألتقِ بهم أبداً. حتى والد هيخو أخي غير الشقيق، لم تكن لي علاقة متينة معه. مرضي كان حالة «مشوّقة» لطالب مثابر مثل هيخو، ومن هنا بدأت ودامت علاقتي معه.

لكنْ؛ في شقتي هذه وجدت سلمى معي. نعم معي... وجدّتي. بعد وفاة جدّتي، كنت أراها بين الحين والآخر. لكنها اختفت لسنوات، ربما كانت أوهام الطفولة حينها، لا أدري. لكنها عادت الآن. لست مجنوناً. أنا أراهما بالفعل، أرى سلمى تتحدث معي وأسمع صوتها، تنام معي، تأكل

fb/mashro3pdf

معي ... حسناً، في الحقيقة، لا تأكل، أنا من أأكل وهي تجلس قبالتي لتنظر لي وتبتسم فقط. لقد دفنتها، وكمال كان يبكي، ونزل تابوتها إلى حفرته، حدث كل هذا بالفعل، أعرف، ولكني لم أبكِ، لا أريد أن أصدق أنها كانت في ذلك التابوت. وكنت على حق. سلمى هنا معي.

في البناية تسكن سيدة عراقية، بسيطة في ملابسها، شاردة، تنظر إلى الأرض وهي تمشي، حاولت أن أتحدث معها، لكنّ تحفّظها يمنعني. ريناتا الثرثارة أكّدت لي أنها امرأة منطوية على نفسها: «لا يزورها أحد سوى ابنتها وابنها بين الحين والآخر، ابنها يزورها بانتظام، كلّ أسبوع تقريباً، لكنّ ابنتها أراها كل بضعة أشهر، تعيش في لندن. زوجها مات. يبدو لي أن لديها مشكلة اندماج مع المجتمع الهولندي، لا أفهم لماذا يبقى هؤلاء هنا إذا كنا لا نعجبهم؟!» قالت ريناتا كل هذا بنَفَس واحد، لم أسألها عن أي شيء، مجرد أنها رأتني من شباك شقتها المطل على الشارع ألقي التحية كعادتي على السيدة.

كنت أتمنى لو عرفتها أكثر، لدي الكثير لأقوله لها، الكثير عن العراق الذي عرفته من سلمى، كان لدي فضول أن أعرف أكثر عن حياتها، ربما لو حدث ذلك لتغيرت حياتي وحياتها، ربما... أو على الأقل، تغيّرت نهايتي.

fb/mashro3pdf

(٤)

في يوم وفاة دافيد أصبح عمري خمسين عاماً. أحمد وسارة أرسلا لي رسالة بالهاتف «كل عام وأنتِ بخير ماما» خمسون عاماً. رددت هذا الرقم كثيراً. وماذا؟! لا شيء، كل يوم مثل كل يوم حتى تنتهي السنة.

بعد زواج سارة، منذ سنة ونصف، وأنا أقوم بعمل نفس الأشياء كل يوم، كل يوم. بدون وعي، بدون رغبة، أو عدم رغبة. أصبحت لا أفكر إلا بالطعام وأحياناً بالماضي الذي يدفعني إلى مزيد من الطعام. المزيد من النسكافيه. كرهت المسلسلات السخيفة، كرهت الطعام، كرهت الدردشة، كرهت خيالي السخيف المخجل، كرهت كل شيء. منذ مدة طويلة جداً، لم أرَ وجهي في المرآة، ولم أقف على الميزان، ولا أزور أحداً. أخرج من شقتي لأتمّم مواعيدي بسرعة وأعود - بعدها - إلى النسكافيه والطعام. في السنوات الأخيرة مهارتي الوحيدة هي الأكل، التهام الطعام، والتهام نفسي أحياناً.

رغم تذمّري قبل أن أنام من تشابه أيامي، يبدأ اليوم التالي وأفعل الأشياء نفسها. لقد فقدت السيطرة - تماماً - على نفسي وحياتي وتصرفاتي. ولكنْ ماذا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك؟! امرأة في الخمسين من عمرها، تزوّج ولداها، زوجها مات، وتعيش بعيدة جداً عن أهلها. ماذا يمكن أن أفعل أكثر مما أفعله، كل يوم، كل يوم؟!

fb/mashro3pdf

(٥)

اليوم هو الثلاثاء. رأيت من شباك شقتي الذي يطل على مدخل البناية نفايات ملقاة أمام المبنى. ارتديت شالي، أخذت كيس التسوّق الكبير الذي آخذه معي كلما ذهبت إلى السوق ونزلت من شقتي. كان لابد أن أنظر نحو شقة دافيد وأتذكر آخر مرة رأيته فيها، جثة.

أمام البناية وجدت سميرة تقلّب النفايات «هذه الأغراض من شقة دافيد» قالت سميرة وهي لا تنظر لي وتفتّش باهتمام شديد بين الأغراض. لم تجد ما يعجبها «زبالة» قالت وهي تمشي ثم تلتفت وتنظر مرة أخرى إلى الأغراض، ثم تعود لتمشي في طريقها وكأنها لا تراني. ليس من عادتي أن أفتّش في هكذا نفايات، ولكنْ؛ عندما قالت لي سميرة «أغراض دافيد» شيء ما دفعني إلى النظر في أغراضه. اقتربت من أشيائه، لم تكن أشياء كثيرة. أول ما لفت انتباهي هو اللوحة. لوحة كبيرة، مرسوم عليها قباب، قباب كثيرة، كنائس، نهر، بيوت، كأني رأيتها من قبل. نظرت من حولي قبل أن أرفع اللوحة وأدخل بها البناية بسرعة وأنا أتلفّت يميناً ويساراً. أخذتها إلى المخزن الخاص بشقتي أسفل البناية. خرجت ونظرت مرة أخرى، هناك صندوق خشبي غطاؤه مكسور وضعوه إلى جانبه. لم يكن ممكناً أن أقف طويلاً وأفتش فيه، فكرت بأخذه إلى المخزن هو الآخر. من الصعب حمله مرة واحدة، لذا وقفت قليلاً وعندما رأيت أن الطريق آمن أخذت قسماً من أغراض الصندوق دون أن أنظر لها وحشرتها في الكيس الذي حملته معي ثم ركضت بسرعة إلى المخزن. وفي المرة الثانية حملت الصندوق الثقيل كله إلى المخزن. وضعت كل شيء هناك، نفضت ملابسي من

fb/mashro3pdf

الغبار، خرجت، وعدت أفتش، مرة أخرى، في أغراض دافيد. ما بقي ليس مهماً لي: كراسي، ستائر، صحون. وكان هناك كتب مبعثرة هنا وهناك جمعتها من بين الأغراض في الكيس ووضعتها في المخزن.

طوال طريقي إلى السوق وعودتي إلى شقتي كنت أسأل نفسي، لماذا فعلت ذلك؟ ما الذي يهمّني في حياة رجل لا أعرفه؟ ماذا لو رآني سكان البناية وأنا ألتقط النفايات وأدخل بها خلسة إلى المخزن مثل «الحرامية»؟ خجلت من نفسي. حاولت إعادة الأغراض إلى مكانها، ولكنْ عندما عدت من السوق وجدتهم قد جمعوا كل الأغراض ونظّفوا المكان. فعلتي هذه جعلتني أشعر بالجوع. رميت كيس الأكل في المطبخ وحضرت كوباً من النسكافيه مع الكثير من الحلويات. أأكل وأفكر بما فعلته. كأني لم أعِ ذلك إلا الآن، كأني كنت مدفوعة بقوة أكبر مني، تماماً مثل قوة شهيتي للطعام.

لقد تصرّفت مثل طفلة. أو مثلما كنت طفلة، عندما كنت أختبئ في عالمي الخاص. في بيت أهلي. في الناصرية.

fb/mashro3pdf

(٦)

أمضيت حياتي متنقلاً بين بيوت كثيرة. بيت أمّي وأبي قبل أن ينفصلا، بيت جدّتي، بيت أمّي مع زوجها، وبيت خالتي بعد وفاة جدّتي. الاستقرار في حياتي كان حالة استثنائية، لذا أخافه.

كنت صغيراً عندما انفصل والداي، حوالي سبع سنوات. لا أذكر شيئاً عن تلك الفترة، وهذا جيد. لكنّ التنقّل بينهما أهلكني في البداية حتى استقرّ أبي في أمستردام وانتقلت مع والدتي إلى بيت جدّتي في ماسترخت. كنت طفلاً حزيناً، صامتاً طوال الوقت، ولا أحب اللعب مع أحد. بيتي الوحيد كان الكتاب، مكتبة جدي.

أحب جدّتي كثيراً. عندما أحاول - أحياناً - تذكّر شيء جميل عن طفولتي أتذكّر - فوراً - جدّتي. ظلّت معي، أراها بين الحين والآخر، ولايزال وجهها كما هو. توفيت بعد الحرب، لكني أظن - دائماً - أنها توفّيت بسبب الحرب. كنا ننظر بيأس من خلف النافذة إلى الجنود الألمان وهم يمشون في شوارع ماسترخت، وسمعنا عندها: بالموت، معركة العبور على نهر الماس، صوت القصف ، جسور ماسترخت الثلاث التي دمّرت، وأخرى، وُضعت - بشكل مؤقت - لعبور الجنود الألمان. الحرب غيّرتنا جميعاً، غيّرت المكان، أصبحت ماسترخت مدينة أخرى لا نعرفها، والخوف في كل مكان، لم يعد حتى بيت جدّتي بحديقته الواسعة ومكتبته الساحرة مكاناً آمناً. حتى السرداب الذي كنت ألعب فيه مع أولاد خالتي يصله صوت القصف.

ماسترخت كانت أول مدينة تحرّرت في هولندا من قبل قوات التحالف في خريف عام ١٩٤٤، لكن الأشياء لم تعد كما كانت قبل الحرب. شهدت

fb/mashro3pdf

جدّتي ذلك لكنها لم تفرح. كانت مريضة بالحرب. قُتل الكثير من يهود ماسترخت في معسكرات الاعتقال النازية. جيراننا، أصحاب الدكاكين، زملائي في المدرسة، اختفوا مع الحرب، لم نشهد موتهم وهذا مؤلم أكثر. بعد الحرب سمعنا بما حدث معهم، من الناجين منهم. وبعد ذلك جاء شتاء الجوع حصد آخرين لم يموتوا في الحرب أو بسببها. الفوضى عمّت البلاد. حتى بعد تحرير البلاد بالكامل ونهاية الحرب في ٥ مايو ١٩٤٥.

انتهت الحرب، ولم تنتهِ. الخراب في كل مكان، الجسور، الشوارع وسكة الحديد. بيت جدّتي نالته حصة من القصف الأمريكي أيضاً، تضرّر البيت، الحديقة والمكتبة. ذاكرتي ظلّت تحمل مآسي الحرب معها، الخوف، وموت جدّتي. حتى تذكّر منظر أصدقائي وهم يلعبون ويضحكون على أنقاض الجسر كان قاسياً بالنسبة لي، كل ذكريات الحرب قاسية، حتى نهايتها: موت عدد من زملائي في المدرسة، مدرّس اللغة الهولندية، وجوه غرباء لا أعرفهم جيداً، صدف أن مرّت وجوههم في حياتي، عندما قُتلوا في الحرب سمعت بموتهم، لكن وجوههم ظلّت في ذاكرتي. أتذكّر أيضاً: الجنود الألمان وهم يمشون بأسلحتهم ووجوههم التي تبدو عادية، وجوه بشر عاديين، مع أن جدّتي كانت تقول عنهم «شياطين، دافيد، احذر منهم، لا تقترب منهم». الجنود الأمريكيون والفرنسيون في الشوارع بعد التحرير، وهم يتحدثون معنا على أنهم أبطال، كل ذلك كأنه حدث الآن. حتى ذاكرة الحرب لا تنتهي. آه الحرب، يبدو أن الحروب تبدأ ولا تنتهي، تبدأ فقط.

بعد الحرب، بأشهر لم نسمع عن أبي أي شيء. اختفى إلى الأبد. تزوّجت أمّي. أعتقد أنها كانت مضطرّة لذلك. لم أستطع العيش معها وزوجها وفضّلت البقاء في بيت جدّتي.

لي أخت وأخ من والدتي. لم أحبّهما مهما حاولت أمّي ذلك، وأعتقد أنهما يكنّان لي نفس الشعور. لا أرى والدتي وعائلتها إلا في المناسبات، كان هذا يضايقها كثيراً، شعرت بذلك وتألمت، ولكنْ ماذا عليّ أن أفعل!

fb/mashro3pdf

أمّي لم تكن قاسية، وحاولت أن تجعلني أحيا حياة طبيعية، حتى أبي حاول ذلك. لكن انفصالهما شقّني إلى نصفين، نصفين غير متساويين بعيدين عن بعضهما، الفراغ بينهما كان يتسع كل يوم ولا أحد يمكنه ملأه، سده، أو حتى إصلاحه.

توفّيت أمّي. عندما أخبرني زوجها بذلك كتمت صرختي، شعرت بغصّة في حلقي، وبكيت. بكيت كما لم أبكِ من قبل. شعور بالذنب لازمني طويلاً بعد وفاتها. كنت على مُشارف الخمسين حينها ولكني شعرت كما لو أني في الخامسة من عمري. احتجت لها كثيراً تلك اللحظة. في تلك اللحظة فقط شعرت كم أحب أمّي.

آخر كلمة قالتها قبل وفاتها «دافيد» وتركت لي رسالة. ظلّت مغلقة، لم أقرأها. احتفظت بها. كلما حاولت فتحها شيء ما يمنعني. يمسك بيدي ويرفعهما عن الرسالة. ربما خجلي من قسوتي على أمّي هو ما منعني. وربما شيء آخر، لا أدري.

تركت ماسترخت، بيت خالتي. ابتعدت، كأني أردت بذلك الهروب من كل ما في الماضي. خالتي كانت تعاملني مثل أبنائها تماماً، لكني بعد دراستي وعملي في أمستردام أهملت التواصل معها «جاحد مثل أبيك» كتبت لي ذات مرة في رسالة غاضبة جداً، كانت حزينة من معاملتي الغريبة لوالدتي ولها. حرقتُ الرسالة بعد أن قرأتها. كنت غاضب حينها من كل شيء. أدرت ظهري للماضي وبدأت من جديد.

قررت مواصلة الدراسة والعمل معاً في أمستردام. درست القانون، والعلوم السياسية، وبعد حصولي على الماجستير كان هدفي أن أعمل خارج هولندا. الهروب من كل شيء أعرفه إلى مجهول لا أعرفه.

حصلت على عمل بالفعل في السفارة الهولندية في لندن.

وهناك التقيت سلمى.

fb/mashro3pdf

(٧)

أنا الرابعة من بين أخوتي. كلهم يظهرون إلا أنا. كلهم مرئيون إلا أنا. هكذا كان يخيّل لي وأنا طفلة. كنت - ببساطة - الشيء السيئ في البيت الذي يقارن به الشيء الجيد وهكذا سيبدو الجيد أكثر وضوحاً. لا أتذكر من طفولتي حدثاً جميلاً تماماً. أذكر أني كنت ألعب مع سعاد وأولاد خالاتي وأخوالي وأعمامي وعماتي. البنات والأولاد في الشارع كانوا يضربونني، كلهم أقوى مني، يسرقون ألعابي، يسخرون مني ولا أدافع عن نفسي. وأتذكّر أيضاً لعبنا في بيتونة المنزل في وقت الظهيرة. كنا نُقلق قيلولة أبي أحياناً فكان يجمعنا نحن الأربعة في زاوية من الغرفة التي ينام فيها «إششش..، يلّه خمدوا، نريد ننام» ولكنْ حتى خوفنا من أبي لم يمنعنا التسلّل من الفراش والهروب ثانية إلى البيتونة.

كان أبي لا يسمح لنا، أنا وسعاد، بالخروج من المنزل واللعب في الخارج. كنا نلعب تحت أنظار والدتي التي كانت أقسى من أبي علينا. نعود من المدرسة، نقوم بواجباتنا المدرسية وواجبات المنزل: التنظيف، غسل الصحون ومساعدة أمّي في كل شيء. سعاد كانت تقوم بالكثير من الأعمال المنزلية وتترك لي أشياء بسيطة أقوم بها.

أما صلاح، أخي الكبير، لا أذكره إلا وهو يحمل كتاباً بين يديه، أو تحت إبطه ويتحدث مع الكبار. يعشق الكتب منذ أن كان صغيراً. صلاح كان مختلفاً جداً عن رجال العائلة، وأبي خاصة. كان عادلاً معنا أنا وسعاد، ويرى أن معاملة أبي وأمي لنا قاسية جداً: «وإذا بنات، يعني مو بشر؟!». لكن أبي كان يتصرف مع صلاح بشكل مختلف تماماً. مع صلاح يبدو أبي رجلاً آخر.

fb/mashro3pdf

علاء كان على العكس - تماماً - من صلاح، يمارس دور الرجل في البيت بكل حرفة معي أنا وسعاد. وخاصة سعاد. غيرته التي كانت تفتخر بها أمّي كانت تخنقنا، تقتلنا، وتدمّر كل شعور بالأخوّة بيننا.

ما لا أجرؤ على فعله أمام الجميع كنت أفعله في الخفاء. كنت أكسر أو أُخفي أغراض علاء انتقاماً لسعاد، أو لأنه حرمنا من اللعب، أو كسّر لنا لعبنا كعادته. أنتقم من بنت خالتي «الوكيحة»(*) هند بربط ثوبها الجديد بمسمار الكرسي فتقوم من على الكرسي ويتمزق ثوبها. أتجسّس على علاء ورفاقه وأخرّب لهم خططهم بنقل ما سمعته إلى أبي أو إلى صلاح، أو أسرق لعب قريباتي البنات اللواتي سخرن مني وأرميها في التّنّور وأستمتع باحتراقها مع الحطب. فعلت كل هذا ولم أشعر بأيّ ذنب. علاء كان يكشفني أحياناً «أيا خبيثة» ولكنه أصبح أكثر حذراً مني. يخاف مني أو يتجنّبني، كان هذا يُشعرني بالانتصار. لا يمكن لأحد أن يتصور أن خلف وجهي البائس كل هذا الشر.

بعد دخولي المدرسة أصبح الجميع يُذكّرني بأني أصبحت كبيرة الآن. أمّي كانت تأخذ دميتي مني وتذكّرني بأني كبرت، وأن مهمتي الآن هي غسل الصحون، أو ترتيب خزانة الملابس أو الدراسة. اللعب «للزعاطيط(**)» كانت تقول. أشعر أحياناً أن طفولتي انتهت قبل أن تبدأ. لا أتذكّر من طفولتي أشياء كثيرة، وما أتذكّره يؤلمني. انتهت طفولتي تماماً في صباح أحد الأيام عندما نهضت من النوم ووجدت تحتي بقعة كبيرة من الدم، شعرت بالخجل وبآلام في جسمي كله. صرخت، بكيت من الخوف والألم. دخلت أمّي الغرفة ورأت فراشي فوضعت يدها على فمي وبيدها الأخرى ظلّت تضربني على رأسي وظهري «اسكتي، لا تفضحينا» خلّصتني من يدها سعاد، ضمّتني بقوة إلى صدرها. كان جسمي كله يرتجف من الخوف.

---

*) الوكيحة: شقية. لعوب.

**) الزعاطيط: الأطفال.

fb/mashro3pdf

تركتني أمّي بوعد من سعاد أن تنظّف فراشي وملابسي ولن يشعر الرجال في البيت بأي شيء.

«لقد أصبحتِ امرأة الآن» قالت لي سعاد وهي تبتسم وتحضنني. سعاد لم تمرّ بكل هذا، تعرف دائماً كيف تتصرف مثل امرأة ناضجة.

عمري الآن خمسون عاماً، ولازلت أتألم عندما أتذكّر اليوم الذي نهضت فيه من النوم ووجدت نفسي فجأة امرأة.

بعد ولادتي، أجهضت أمّي عدة مرات، حدث لها ذلك سابقاً بين ولادة وأخرى، ولكنْ هذه المرة طالت المدة. خمسة عشر عاماً توقفت أمّي عن الإنجاب ـ حتى حملها بمرتضى ـ حمّلت أمّي «وجهي النحس» مسؤولية إجهاضها المتكرر.

كلما كنت أكبر، أختبئ أكثر عن أنظار أهلي. حياتهم أصبحت أمراً لا يعنيني ولا يهمّني منذ أن أصبحت امرأة، بل كنت أرى وأسمع وأتصرف كما لو أني لم أرَ أو أسمع. أشياء نسيتها منذ الطفولة وها أنا الآن أعثر عليها مجدداً مختبئة في داخلي.

لقد سرقت أشياء وحياة أناس لا أعرفهم.

fb/mashro3pdf

(٨)

أنا أكبر الأحفاد. لذا كانت لي مكانة خاصة عند جدّتي. «أبوك لا يستحقّ أمك، ولا يستحقّك...» كانت تقول. تكره أبي كثيراً، وتلوم أمّي دائماً على زواجها «المشؤوم» منه. جدّي كان ضابطاً في البحرية، توفي قبل زواج أمّي من أبي. لكن مكتبته لا علاقة لها بمهنته، فيها كتب شعر وتاريخ وفلسفة وروايات. قرأت معظمها رغم أني أحياناً لا أفهم أي شيء مما أقرأ، لكن الكتاب كان مثل عالم آخر أدخل فيه وأنسى كل شيء، مثل سرداب بيت جدّتي، كان ملاذي للّعب أو للقراءة أو للهروب. «أنت مثل جدّك» تقول لي جدّتي، كلما رأتني أحمل بيدي كتاباً، وأحياناً كانت تقرأ لي، خاصة في أيام الشتاء قرب المدفأة.

الصوت العالي كان يخيف جدّتي. عندما كنا نسمع أنا وهي صوت انفجار، الطائرات العسكرية أو إطلاق ناري، نحضن بعضنا بقوة وأشعر بكل جسدها يرتجف «أوما، لا تخافي، لا تخافي» أقول لها «لستُ خائفة عزيزي، أشعر فقط بالبرد».

جدّتي متديّنة جداً. كنا نصلّي معاً وتأخذني كل أحد إلى الكنيسة، كنت أفعل هذا من أجلها. لم أشعر بالرّبّ الذي تؤمن به جدّتي وسلمى وأمي وأهلي كلهم. لم أؤمن يوماً بوجوده. كنت أمثّل الإيمان كي أُرضي جدّتي فقط «أحبّك أكثر من الرّبّ» أقول لها. وفي الكنيسة، رأيت هنريت لأول مرة. صبية جميلة تكبرني بعامين، وأصبحنا أصدقاء. كانت تسكن مع عائلة مضيفة بعد أن هاجر أهلها إلى الهند. السرداب كان ملاذنا الجميل. نهرب اليه لنكتشف عالمنا الخاص. كانت أول فتاة أقبّلها وأرى جسدها.

fb/mashro3pdf

كانت تتعرّى أمامي دون أن أطلب منها ذلك. كانت تتعرّى أمامي كما لو أنها فعلت ذلك من قبل. كان الأمر يربكني أحياناً، ويخيفني أحياناً أخرى، لكنّ متعة الاكتشاف وتجربة شيء جديد كانت تفوق أيّ شعور آخر. تعرّفت من خلال هنريت على جسدي، وتعرفتْ هي من خلالي على الكتب. أحبّت الشعر كثيراً. كنت أقرأ لها الشعر، شعر مارسمان، بلوم، كامبرت، آلان بو، رامبو، فاليري، فرلين. وبالألمانية هاينه وغوته. اختفت هنريت فجأة مثل حلم. والعائلة التي كانت تسكن عندهم قالوا لي إنها ذهبت للسكن عند أقرباء لها في أوترخت. طالما حدّثتني هنريت عن خوفها من الرجل ربّ العائلة التي تسكن عندهم ولم تخبرني بالكثير عن ذلك. أعتقد أن اختفاءها له علاقة بهذا الرجل الكريه. كان لدي أمل أن أراها ثانية، حتى انتهت الحرب ونسيتها تماماً، نسيت كل شيء عنها، لم يعد أمرها يهمّني، فجأة، أيضاً.

بعد وفاة جدّتي سكنتُ مع خالتي لفترة. كانت أياماً كئيبة. بعد أن كنت حراً، وحدي، أصبح معي سبعة شياطين يشاركونني في كل شيء. ضوضاء مستمرة. فضّلت خالتي إبقاء بيت جدّتي مقفلاً لأنها لا تملك المال لترميمه وإصلاح ما تدمّر من القصف، بل واتفقت مع أمّي على بيعه وتقاسم ممتلكات المنزل بينهما. كنت أذهب بين الحين والآخر إلى المنزل وأقرأ في كتب جدّي وأرى جدّتي هناك وأتحدّث معها أحياناً. لم أفكّر أن أنقل المكتبة أو أجد لها مكاناً آخر، لم يعد أمر الكتب يهمّني، كان ما يهمّني حينها الهروب من بيت خالتي، الهروب من ماسترخت إلى حياة أخرى أكثر بهجة وحرية. كنت أعمل في أيام العطل مع زوج خالتي في مخبزه وأدّخر المال لحلمي: السكن في أمستردام والدراسة هناك.

«المكتبة لك» قالت جدّتي قبل وفاتها بعدة أيام، لكني كنت حينها قد كبرت على عقل الصبي الذي كان يختبئ خلف الكتب. لا أتذكّر جيداً أين ذهبت المكتبة بالضبط، كم هو مؤسف هذا! لم أذهب في شارع بيت جدّتي بعد أن سكنه غرباء، لم أجرؤ على ذلك. ونسيت أمر المكتبة تماماً.

fb/mashro3pdf

عند وفاة جدّتي، اختبأت في السرداب لعدة أيام، وعندما خرجت، لم أجدها. لم أبكِ على وفاة جدّتي، لم أصدّق أنها ماتت، لا أريد أن أصدّق ذلك. في اليوم التالي، وجدتها تجلس على كرسيها قرب المدفأة وتحوك كعادتها. كنت أراها في كل مكان. ولم أخبر حتى أمّي بذلك.

جدّتي كانت تقول إن روح جدّي تسكن كل كتاب قرأه. كم ألوم نفسي لأني لم أحافظ على كتبه، روحه، ووصية جدّتي: «المكتبة لك دافيد... إنها أعز ما كان يملك جدّك».

fb/mashro3pdf

(٩)

هل أخبر سعاد بما فعلته اليوم صباحاً؟ سألت نفسي، وفي النهاية لم أجد ذلك ضرورياً. لكنْ ماذا سأفعل بأغراض دافيد؟ هذا السؤال جعلني أخرج الساعة التاسعة ليلاً من شقتي وأنزل إلى المخزن، أقفل بابه خلفي، وأجلس على الأرض مع أغراض دافيد. بدأت باللوحة. توقيع اللوحة «Salma» اللوحة كلها قباب، سبع عيون. ألوانها شرقية، أزرق، أخضر فيروزي، أحمر غامق، كأني رأيتها من قبل، لكنْ؛ أين؟ ومتى؟ والصندوق فيه كتب باللغة الهولندية، الألمانية والإنكليزية، كلها كتب قديمة. كتاب ضخم غلافه أحمر داكن، يبدو قديماً جداً، على الغلاف لا يوجد شيء، ولكنْ عندما تصفّحت عدداً من أوراقه الصفراء قرأت: «ديوان الشريف الرضي». وضعته جانباً... كأني أحلم... كتاب عربي؟! حدّقت فيه مرة أخرى «ديوان الشريف الرضي» نعم، لا أحلم.

انتهيت من التفتيش في باقي الصندوق. هناك بطاقات مكتوب عليها وأخرى لم تُستخدم بعد. رسائل مربوطة مع بعضها بخيط ساتان لونه الأصلي أحمر ربما. ربطة عنق لونها أسود، مربوطة أو معقودة، لا يمكن فكّ عقدتها. زهور مجفّفة لا تزال في علبها، لم تُستخدم بعد. دفتر صغير لون غلافه أحمر، مكتوب فيه أشياء كثيرة بخطّ رديء، أرقام تلفونات، ربما عناوين، تواريخ وأسماء. رائحة الدفتر رائعة. شموع مستخدمة وشمعدان. الغبار كان يغطّي كل شيء حتى الكتب. يبدو أن هذا الصندوق كان في مخزن دافيد، ربما كل الأشياء في الصندوق كانت مهملة، إلا الرسائل، ديوان الشريف الرضي والدفتر الأحمر الصغير كانت نظيفة بالنسبة لباقي

fb/mashro3pdf

الأشياء. لكنْ بين الحين والآخر تطغى رائحة احتراق على الأشياء. لم أستطع أن أحدّد من أين تنبعث الرائحة!

ما الذي يهمّني في حياة رجل غريب؟ فكّرت كثيراً وأنا أجلس على أرضية المخزن الباردة الرطبة ومن حولي أشياء دافيد. لماذا أشغل نفسي بمعرفته بعد موته؟ ما الفائدة من كل هذا؟ لكنّ ما وجدته مثير للفضول فعلاً. ديوان الشريف الرضي، اسم سلمى على اللوحة، القباب، كل هذا غريب. ربما أحدهم رمى الكتاب مع أغراض دافيد؟ قلت لنفسي. أخذت ديوان الشريف الرضي معي.

منذ زمن طويل لم أقرأ. في بيتي لم يهتمّ أحد بالقراءة. لدينا كتابان فقط، قرآن وكتاب أدعية.

ديوان الشريف الرضي الذي خبّأته تحت شالي وأنا أصعد به نحو شقتي، رائحته ذكّرتني بصور نسيتها. شعرت كما لو أن روحاً ضممتها إلى صدري. وددت لو أن الطريق إلى شقّتي يطول حتى أتذكّر كل شيء، رغم أني أهرب دائماً من الماضي، من كل شيء.

كل ما يحدث الآن يذكرني بأخي صلاح ومكتبته.

fb/mashro3pdf

(١٠)

هربت إلى لندن. من كل شيء في حياتي في هولندا. رغم أنها كانت حياة طبيعية وهادئة إلى حد ما، لكنها لم تعجبني، كرهتها. كنت أحاول خلق دافيد جديد تماماً.

الحياة في لندن كانت سهلة، ممتعة ومليئة بالأحداث. سعادتي كانت في العمل والنساء. بعد عدة سنوات من العمل في السفارة والعلاقات العابرة التقيت جوان. فتاة طموحة جداً، متوسطة الجمال، جاءت لتعمل في السفارة. والدها طبيب هولندي وأمها مدرسة إنكليزية. توطّدت علاقتي بها حتى أصبحت واحداً من عائلتها، وبدأ حبي لها يزداد يوماً بعد يوم. لكن قلبي ظلّ يخفق لكل جميلة. لم أستطع السيطرة على هذا الأمر، وخنتها أكثر من مرة. لم أجد صعوبة في التقرّب من النساء، كنّ يجدنني وسيماً، جذاباً ولطيفاً، من دون أي جهد مني. شعرت جوان بذلك، لذا قررت زيارتي كل يوم والمبيت أحياناً في شقتي. شعرت بالضيق من ذلك. ولكني كنت دائماً ما أجد حيلة للهروب منها إلى أخرى. لا يمكنني السيطرة على إغراء امرأة جميلة.

حتى ظهرت سلمى.

رأيت سلمى للمرة الأولى في خريف عام ١٩٧١. كانت ترتدي ثوباً أسود حداداً على والدها الذي توفي في بغداد. نالت للتّوّ شهادة الماجستير في الأدب الإنكليزي من جامعة لندن وقرّرت الاستقرار فيها هي وأخوها كمال الذي لحق بها للدراسة في نفس الجامعة. التقيتها في منزل صديقة

fb/mashro3pdf

مشتركة، مارغريت. ما إن رأيتها وتلاقت أعيننا حتى عرفت أني لن أتركها، هذه المرأة ستكون لي، قلت لنفسي وأنا أصافحها وأبتسم.

جميلة، ناعمة، هادئة، لا تتحدث إلا بالرد على سؤال. ذكية في ردها، كأنها تبذل مجهوداً لتنطق كل كلمة تقولها، تظن أنها تفكر في كل كلمة قبل أن تقولها، وعيناها السوداوان تتسعان عندما تتحدث. لم يكن يعجبني هذا النوع من النساء قبل أن ألتقيها، أخاف منه، لأنه نوع جاد. «هل زرتِ بغداد مؤخراً؟» سألتها، «نعم، بالطبع. كل صيف، وفي عطلة الكريسمس. لاتزال أمّي تعيش هناك مع عائلة أخيها وجدّتي» ثم صمتت قليلاً، وكأنها كانت تتمالك نفسها قبل أن تقول: «ولكن العطلة القادمة ربما لن أذهب، الأمور في العراق تغيّرت كثيراً. ربما تغيّرت إلى الأبد».

fb/mashro3pdf

(١١)

عندما ازدحمت غرفة صلاح بالكتب، طلب من والدي أن يحوّل البيتونة إلى غرفة مكتب له، يكتب ويقرأ فيها. في صباح اليوم التالي جاء عمّي موفق لكي يأخذ القياسات اللازمة لعمل مكتبة في البيتونة وطاولة للكتابة. عمّي موفق كان صديقاً مقرباً لصلاح رغم فارق السن بينهما، ويعشق الكتب مثله.

حائط كامل من الرفوف، من السقف حتى الأرض، ومن يسار الحائط حتى يمينه... كتب. أسفل المكتبة صنع عمّي موفق أدراجاً «للقرطاسية» يقول لأبي وهو يفتحها ويغلقها. وطاولة خشبية رائعة مربّعة، وأريكة صمّم أساسها عمّي أيضاً وترك الباقي لصديقه كي يغلّفها بقماش أحمر داكن. طاولة صغيرة وكرسيين، وتحولت غرفة السطح المهملة التي كانت وكراً لنا عندما كنا صغاراً ومن ثم مكاناً لـ «نضيدة»(*) أمّي وأغراض البيت، إلى مملكة رائعة لصلاح.

جميعنا شاركنا في نقل الكتب، وهو وحده مَن قام بترتيبها. عندما أتذكّر ذلك يستوقفني شيء غريب... لماذا لم تثر كل هذه الكتب فضولي لقراءتها؟ كنت أراها مثل الكرسي أو الطاولة، أشياء أزيح الغبار عنها.

كان صلاح يقرأ كل شيء، واحتفظ في مكتبته بكتب متنوعة. كلما اشترى كتاباً جديداً كان يقول: «هذا أفضل كتاب اشتريته» وهكذا حتى أصبحت كل كتبه من أفضل الكتب التي اشتراها. يقضي وقته كله في

*) نضيدة: نضد من الأغطية، البطانيات والشراشف الإضافية.

fb/mashro3pdf

القراءة، يعمل، يدرس ويقرأ ولم يكن لديه وقت للأشياء التي تشغل الشباب عادة في مثل سنه. كل ما يشغل عقله هو الكتب والقراءة فقط.

يقضي معظم وقته في البيتونة وحده أو مع عمّي موفق، يتحدثان عن الكتب والسياسة ... والسياسة كانت دائماً موضوعاً مقلقاً بالنسبة لوالدي. «موفق، ابتعدْ عن السياسة ووجع الرأس» كان يحذّر عمّي. أبي كان خائفاً على صلاح من عمّي موفق وتقلّباته الفكرية وتوجّهاته السياسية أيضاً. بعد أن كان عمّي شيوعياً، ويتحدث عن الرأسمالية وماركس طوال الوقت «شيوعي بطرگ لسانه»(*) كما كانت تصفه عمّتي، تحوّل إلى رجل متديّن يقرأ لمحمد باقر الصدر ويدافع عن أهدافه وفكره. رغم أن صلاح طمّن والدي كثيراً «ليس لي علاقة بعمّي موفق، هو حرّ بما يفعله» لم يطمئن هذا الكلام أبي وزاد خوفه.

اقتيد عمّي موفق من منزله أمام أعين زوجته وأولاده. وتهمته كانت انتماءه لحزب الدعوة.

حياتنا تغيّرت تماماً بعد ذلك وأصبح أبي مسؤولاً عن عائلة عمّي أيضاً. بعد ستة أشهر من الخوف والأمل، لم يبقَ لنا أيّ أمل. ورقة من قسم الشرطة قتلت كل أمل لدينا في رؤية عمّي موفق مرة أخرى. أعدموا عمّي موفق. كانت تلك الأيام أياماً سوداء في حياتنا، في حياتي، وفي ذاكرتي.

اعتزل صلاح في البيتونة بعد وفاة عمّي. الأمن كان يراقب بيتنا، الهاتف. وبين فترة وأخرى تصلنا «دعوة» من قسم الشرطة إلى الاستجواب. ظل هذا الحال لسنوات.

بعد عدة أشهر من موت عمّي موفق بدأت الحرب «قادسية صدام». وبدأت سنوات حصاد جديد. اقتيد صلاح إلى الحرب. بعد تخرّجه من الجامعة التكنولوجيّة في بغداد. كان يعمل في معمل النسيج في الناصرية،

---

*) قول بلا فعل.

fb/mashro3pdf

بالإضافة إلى مساعدته والدي في عمله كمقاول. طُرد من المصنع، وأُجبر على الالتحاق بالجيش بتهمة عمّي التي طاردتنا جميعاً. صورته وهو يرتدي الملابس العسكرية كانت آخر صورة أتذكّرها له. كان يبدو وسيماً ويائساً. بكى كثيراً على كتف أبي قبل أن يذهب، حضن كل واحد منا وهو ينظر إلى عينيه أولاً. بقوة حضنني. كان يعلم أن لا عودة. نظر إلى كل شيء في البيت، كأنه كان يريد أن يلتقط كل شيء ويأخذه معه. «في أمان الله» قال وخرج من المنزل. رمت أمّي الماء خلفه، أو سقط من يدها الإناء «صلاح!!» لم يلتفت لها.

عاد لنا بعد عدة أشهر جثة مشوّهة. احترق في الدبابة ... «شهيد». لن أنسى ذلك اليوم أبداً. حتى صوت الجرس وهو يرن ليلاً. صرخة أمّي وهي تنهض من مكانها كأنها تعلم مَن يقف وراء الباب «يا ساتر يا رب» وصرخة أبي كأنه يعلم أنه معهم «صلاح!».

بعد موت صلاح، أقفلت أمّي البيتونة، وضعت على بابها دولاباً كبيراً «كنتور»(*)، كانت تضع فيه شراشف ومخدات وأغطية. لم يتحرك الكنتور من مكانه بعد ذلك أبداً... وكأنها دفنت أشياء صلاح معه. دفنت كل ما يحب صلاح معه. «محد(**) يفتح الغرفة، إلى أن يرجع صلاح». وأبقت غرفة نومه كما هي.

في اليوم الذي دُفن فيه صلاح دُفنا جميعاً، لم نعد كما كنا، ولا حتى الأشياء من حولنا. موته كان نهاية لزمن وبداية زمن آخر. لقد تغيّر كل شيء في حياتنا إلى الأبد.

مَرِض أبي، وأمي كانت تطوي الليل مع النهار في البكاء، كأنها تعيش مع صلاح ولا تشعر بوجود الآخرين من حولها، ولكنها أصبحت أكثر هدوءاً.

---

*) كنتور: خزانة للملابس أو لحفظ أشياء أخرى.

**) محد: لا أحد.

fb/mashro3pdf

زادت قسوة أبي علينا، وزادت قسوته على أمّي أيضاً. ترك عمله ولم يبحث عن عمل آخر. وهذا ما جعل علاء يعمل - إلى جانب دراسته - لينفق علينا.

ظلّت غرفة صلاح كما هي بعد وفاته، تنظّفها أمّي كما لو كان صلاح لا يزال حياً. غرفته مقفلة طوال الوقت، تفتحها أمّي لتنظيفها والجلوس فيها لساعات وهي تبكي. تؤكد لنا في كل مرة أنها تراه يجلس على سريره ويقرأ، وعندما تتوقّف عن البكاء فذلك يكون بأمر منه لأن بكاءها يزعجه.

في زيارتي الأخيرة إلى العراق، نمت في غرفته، وحلمت به يجلس على سريره ويقرأ، كما رأته أمّي وعيناها مفتوحتان، وقال لي: «آمنة، اصعدي إلى البيتونة ونامي هناك».

fb/mashro3pdf

(١٢)

لم أنم تلك الليلة. سلمى تحيط بي من كل جانب. صوتها، وجهها، وأكرر مع نفسي كل كلمة قالتها مرة بعد أخرى. تمنّيت أن ينتهي الليل بسرعة لأرى ماذا أفعل في اليوم التالي، كيف سألتقي بها مرة أخرى؟ كنت أفكّر بكل هذا وجوان تنام إلى جانبي وتحضنني! لم أستطع معرفة المزيد عن سلمى في لقائي معها، لأن جوان كانت معي، وخشيت أن تكشف مشاعري، هي تفهمني جيداً. في اليوم التالي اتصلت بمارغريت، كانت مستغربة من اتصالي في وقت مبكّر. «أريد زيارتك اليوم» طلبتُ منها، «لا أستطيع اليوم» ردّت فوراً، وبعد إلحاح مخجل مني وافقت على زيارتها مساءً.

كان يجب أن أجد عذراً معقولاً أقوله لجوان لكي أخرج وحدي. كان عليّ أن أكذب طبعاً. فور جلوسي في بيت مارغريت سألتها عن سلمى. عراقية جاءت للدراسة هنا، وبعد أن أخذت الماجستير، نصحها والدها بالبقاء في لندن، إلى أن تستقرّ الأمور في العراق، مارغريت لا تعرف الكثير عن هذا الموضوع، لكنها تظن أن للأمر علاقة بالوضع السياسي الجديد في العراق. «لا تتكلم عن حياتها الخاصة كثيراً، هي حذرة جداً» قالت مارغريت. «متزوجة؟» سألتها، «لا، كانت مخطوبة لرجل في العراق، لكنهما انفصلا عن بعضهما، هذا ما قالته لي ذات مرة». مارغريت المسكينة كانت ترد على تحقيقي معها حول سلمى بكل لطف، وقلق أيضاً. «والآن، جاء دوري... لماذا تريد أن تعرف كل شيء عن سلمى؟» لم تكن لدي إجابة عن هكذا سؤال، أنا نفسي لا أعرف لماذا أنا مهتمّ بها. ما الذي فعلته

fb/mashro3pdf

بي هذه المرأة؟ .. «لا أعرف مارغريت، صدّقيني لا أعرف» ولكنها شعرت أن اهتمامي كان أبعد من الفضول أو الرغبة، «جوان فتاة طيبة وتحبك، فرحتُ لأجلكما كثيراً، كنت أظن أن علاقاتك العابرة سوف تنتهي...». كدت أن أقول لها بأن شغفي بالنساء لم ينتهِ مع جوان، لكني لستُ وقحاً لهذه الدرجة، جوان فتاة طيبة فعلاً ولا تستحق مني كل هذا.

التصقت بالمقعد، لم أفكّر بالساعة، أو حتى بزوج مارغريت الذي بدأ يتضايق من جلوسنا وحدنا فترة طويلة، لأني كنت أتمنى أن تدخل سلمى في كل لحظة، أو تتصل بمارغريت لأسمع صوتها. بعد صمت طويل، «لن تأتي الآن» همست لي مارغريت، ثم ضحكت: «يا لك من وغد»! ربما عرفت مارغريت كل ما يدور في عقلي، ليس مهماً، لم يعد يهمّني وقتها أيّ شيء. طلبت بجرأة رقم هاتف سلمى أو حتى رقم شقتها. رفضت مارغريت طلبي «يجب أن تعرف هي أولاً، ربما لا تسمح بذلك» ردّت مارغريت.

خرجت من شقة مارغريت وكانت تراودني فكرة جنونية. أن أدقّ جرس كل شقة في البناية حتى أعثر على سلمى. لكنْ لحسن الحظ، سلمى كانت تصعد الدرج عندما نزلتُ منه. كاد قلبي يخرج من صدري، ضحكتُ لها، «سلمى!» نظرت لي وهي تبتسم بتحفّظ، «أهلاً» ردّت بخجل ... تصرّفت مثل طفل وجد لعبته أخيراً.

«هل يمكنني الحديث معك؟»

. «الآن؟»

. «ممكن؟»

. «أعتذر، ليس الآن، ربما في وقت آخر...».

. «متى؟ غداً؟»

- «غداً لا أستطيع...» قاطعتها قبل أن تقدم أسبابها... بقيت أمشي معها حتى باب شقتها، وأحاول، «أرجوكِ غداً، أرجوك!» وافقت أخيراً.. وكان لقاؤنا الأول في أحد المقاهي في مارليبون .

fb/mashro3pdf

(١٣)

وضعت ديوان الشريف الرضي على الطاولة وذهبت إلى المطبخ لتحضير كوب كبير آخر من النسكافيه. وجدت رسائل كثيرة بالأوف لاين من سعاد، سارة ومرتضى، لقد نسيتهم وتركت الدردشة دون أن أخبرهم بذلك. لأول مرة أترك الحديث معهم قبل أن يتركوني هم.

شغلني سؤال واحد: ماذا كان يفعل هذا الكتاب في شقة دافيد؟ كتاب عربي، وشعر قديم. ربما الكتاب ليس له، هكذا أقول لأقنع نفسي. رائحته جميلة، لا أمَلّ من وضع أنفي بين أوراقه. مكتوب على ثاني صفحة:

إلى ابنتي الغالية سلمى:

شاعر من الحياة، من العراق، وشعر مفعم بالجمال والصور، أتمنى لك قراءة ممتعة وعمراً جميلاً مديداً.

بابا

٦-٩-١٩٦٥

سلمى صاحبة اللوحة. وما علاقتها بدافيد؟ بدأت أقرأ الديوان صفحة بعد صفحة، كأني أبحث عن شيء، لا أعلم ما هو. لقد دخلت حياة أناس لا أعرفهم، حشرت أنفي في ذكرياتهم رغم أني أهرب من ذكرياتي طوال الوقت.

ديوان أشعر الهاشميين الذين هم أفصح العرب العرباء ...

لا أعرف الكثير عن الشريف الرضي. أعرف أنه وُلد ودُفن في بغداد، وقبره إلى جانب ضريح الإمام موسى الكاظم.

fb/mashro3pdf

الكتاب كان جيداً، رغم أن أوراقه صفراء وطبعته قديمة. رائحته، مثل رائحة التراب بعد المطر، أو رائحة الأضرحة في العراق، أو ... ماء الورد، بخور... لا يمكن وصفها. رائحة مميزة. كلما تنفّستها تحرّكت الذكريات في رأسي. لا أريد أن أتذكّر أي شيء من الماضي الآن. ورغم ذلك، أعود إلى الكتاب وإلى عالمه مرة أخرى.

أخذت معي آخر كوب نسكافيه لذلك اليوم إلى غرفتي ومعي كتاب الشريف الرضي. أغلقت الإنارة، فتحت الستائر ليدخل بعض الضوء من الشارع إلى الغرفة، أغلقت باب غرفتي. استلقيت على سريري ومعي هذا الكتاب.

غرقت في الكتاب، كأن قصائده قصتي، قصص كل الناس الذين عرفتهم أو لم أعرفهم طوال حياتي. رغم أني لا أفهم معاني معظم الكلمات، لا أقرأ معناها في حاشية الصفحات، لم يكن ذلك ضرورياً... أردت أن أبقيه غامضاً ساحراً كما هو. لم أهتمّ بالشعر يوماً، ولا بالكتابة، الأدب، ولا حتى الكتب. لا يمكن إيجاد وصف لما حدث معي. شيء غريب ينتابني كلما قرأت في هذا الكتاب، كأني أسمع صلوت الشريف الرضي، بل وأشعر بوجوده أحياناً. لذا تخيّلت شكله، رسمت له صورة في مخيّلتي. مثلاً، صورته وهو يلقي قصيدته:

أرى النـاس يهـوون الخـلاص مـن الـردى
و تكملـة المخلـوق طـول عنـاء
و يسـتقبحون القتـل والقتـل راحـة
وأتعـبُ ميـت مَـن يمـوت بـداء

لم أشعر بأني مسحورة فعلاً بشعر الشريف الرضي إلا عند شروق الشمس. لم يحدث هذا معي من قبل، لقد نسيت نفسي تماماً.

فلا طَرِبٌ إن زدت قرباً إليهم ولا أسفٌ إن زاد ما بيننا بعدا

أغلقت الستارة وعدت إلى سريري، غفوت، وإلى جانبي الشريف الرضي.

fb/mashro3pdf

(١٤)

لقد جاءت سلمى على الموعد، ومعها كمال. «أين جوان؟» سألتني. غضبت جداً، جداً من تصرّفها هذا. لم أستطع كتم غضبي وتذمّري من وجود أخيها معها، كان يجب أن أعرف على الأقل. «لم أقل إن جوان ستأتي معي» قلتُ بحدة. كنت أنظر لها ولا أسمع ما تقول هذه المرة، أردتها أن تفهم أني غاضب جداً، جداً. طلبنا قهوة، وتحدثنا عن لندن، بغداد، الاحتلال الإنكليزي وعن أبيها أستاذ اللغة العربية في جامعة بغداد، عن حبّه للغة الإنكليزية والعربية والأدب، وعن الرسم أيضاً. سلمى تعشق الرسم وتحلم بإقامة معرضٍ لها في لندن. تغيّر مزاجي الغاضب أثناء الحديث إلى مزاج عادي، وبعد أن استأذنت هي وكمال، صافحتها ونظرت لها بلوم «لماذا؟» كانت تقول عيناي. شعرت سلمى بالخجل ونظرت إلى أخيها، وكأنها كانت تخاف أن يفهم نظرتي لها.

بقيت جالساً في المقهى بعد ذهابهما. لقد انتظرت هذا اللقاء منذ البارحة. لم أغفُ، تخيّلت حديثاً آخر، صوراً أخرى كانت تمر في مخيلتي الواحدة بعد الأخرى. وحدث الآن شيءٌ آخر تماماً. لماذا فعلت ذلك؟ هل شعرت بي وفضّلت إيقافي عند حدّي؟ أو ربما خجلت من مقابلتي وحدها؟

في نفس اليوم مساءً. وجدت نفسي أقف في باب شقتها. فتحت لي الباب وظلّت صامتة، لا تعرف ماذا تقول، مستغربة من وجودي، وكأنها تقول: أنت مرة أخرى!

«أريد لقاءكِ وحدكِ...» قلت بسرعة، «هل هناك شيء مهم؟»

fb/mashro3pdf

سألت بهدوء. «أريد لقاءكِ وحدكِ، أريد الكلام معكِ فقط، ممكن؟» لم ترفض، لكنها وافقت بتردّد، وهذه المرة كان عليّ أن أصبر يومين كاملين للقائها مرة أخرى.

كذبت كثيراً على جوان في هذه الفترة، لكنها شعرت بكل شيء «ماذا بك؟ هل تحبّ امرأة أخرى؟» سألتني مراراً، «لا، أنتِ فقط» كنت أجيبها. لم أكن أعرف أن اعترافي لها بحب امرأة أخرى أهون بكثير عليها من معرفتها أني كنت أكذب عليها طوال الوقت. جوان المسكينة.

لقائي الثاني مع سلمى، في نفس المقهى. هذه المرة جاءت وحدها، لكنها كانت أكثر تحفّظاً وهدوءاً. شعرتُ بيدها ترتعش وهي تصافحني. دقائق طويلة مرت قبل أن أنطق بكلمة معها. كانت تنظر إلى القائمة التي أمامها، إلى السقف، يميناً ويساراً، وتتحاشى النظر إليّ، وأنا كنت أنظر إليها، فقط. مستمتع بخجلها، بوجودها معي، بكل هذا الجمال الذي لم أره من قبل.

- «سلمى».

- «نعم».

- «أنا أحبك».

fb/mashro3pdf

(١٥)

شقة دافيد سيسكنها ساكن جديد. رأيت رجالاً يحملون ثلاجة كبيرة ويدخلون بها إلى الشقة. لا أحد يعرف مَن هو الساكن الجديد، ولا حتى سميرة. «سمعت أن دافيد قد انتحر، وأنه حاول الانتحار أكثر من مرة من قبل» قالت. «مَن قال ذلك؟» سألتها، وقد أزعجني كلامها هذا، «جارته قالت لي» جارته الفضولية الثرثارة. «يقولون، أيضاً، إن شبحه لا يزال يسكن في الشقة. الله يكون في عون الساكن الجديد» همست سميرة في أذني وهي تمسك ذراعي بقوة. أرادت سميرة إثارتي بقصصها ولكنها لم تنجح مرة أخرى.

عند عودتي إلى البناية، رأيت رجلاً يقف في باب الشقة ويشير بيده لرجلين إلى الجهة التي يجب أن يضعوا فيها أريكة كبيرة. ظننت أنه الساكن الجديد، لم أرَ إلا ظهره. رجل ممتلئ، شعره أبيض.

التفكير بما وجدته من حياة دافيد ظلّ يشغل بالي أياماً. أبحث في عقلي عن خيط يربط كل هذه الأشياء مع بعضها. تفكيري هذا ينتهي عندما أقول لنفسي جملة واحدة فقط: وما علاقتي بدافيد وحياته؟ وأحياناً يكون هذا السؤال نفسه محفّزاً للتفكير أكثر بلغز حياته.

الدردشة مع أهلي وأولادي، التلفزيون وحتى الأكل أصبح غير مهمّ بعد دخول كتاب الشريف الرضي إلى شقّتي. أصطحبه معي إلى المطبخ، إلى الفراش، وأحياناً أقرأ أثناء الدردشة. سارة شعرت بالتغيير الذي حدث لي. «ماما، ما بكِ؟» لقد قلّ اهتمامي بسارة وأحمد والحديث معهما. إن لم يتصلا بي، لا أتصل.

fb/mashro3pdf

لاحظتْ سارة ذلك بسرعة، لأني كنت أتحدث معها كل يوم، وأريد أن أعرف منها كل شيء، حتى التفاصيل المملة.

تردّدت كثيراً في قراءة الرسائل. في النهاية، قررت قراءتها. وليس هذا فحسب، علّقت اللوحة في الصالة، قباب، بيوت، جسر، كنيسة، ربما نهر. ألوانها مدهشة. حملت كل الكتب من المخزن إلى الشقة. نقلت كل هذه الأشياء إلى شقتي في ليلة واحدة، وبمنتهى الهدوء. لا يمكن لأحد أن يلاحظ ما فعلت، حتى جارة دافيد الفضولية الثرثارة. أو هكذا كنت أظن. لا يوجد سبب لكل ما فعلته، ولكني كنت سعيدة جداً.

رسائل دافيد على الطاولة، إلى جانب سريري ظلّت عدة أيام قبل أن أتجرأ على فتح إحداها، وقراءتها. ما الذي جعلني متردّدة في قراءتها رغم فضولي القاتل لمعرفة كل شيء عن حياة دافيد، لا أعرف!! ربما هو نفس السبب: الخوف من قراءة الرسائل، ورغبتي في معرفة كل شيء عن حياته!!

دخل دافيد حياتي بعد موته، هو وكتبه وماضيه. هل يمكن أن تكون سميرة على حق؟ وشبح دافيد لا يزال في البناية، في شقتي مثلاً، مع أغراضه.

أكواب النسكافيه زاد عددها، ووقت القراءة أيضاً. كتب دافيد كلها روايات، دواوين شعر، كافكا، آلان بو، غوته، ديستوفسكي، تولستوي، مارك توين، سارتر، ماركس، هاينه، إيمانويل جايبل، غوستاف، وولف، وآخرون. هناك كتب، بالألمانية والهولندية، ولكن معظم الكتب كانت، باللغة الإنكليزية. لم أجد فيها أي شيء، علامة، إشارة تحلّ لي هذا اللغز. ولكنْ هناك ثنيات للصفحات، وهذا لا يعني شيئاً. ذكّرتني هذه الروايات بأن لديّ بكالوريوس في اللغة الإنكليزية، ودرّست حوالي سنة كمحاضرة في ثانوية للبنات في الناصرية قبل أن أتزوج إبراهيم وأنتقل إلى بغداد. لقد نسيت هذا.

fb/mashro3pdf

(١٦)

عزيزي دافيد:

تحياتي لك من بغداد. كانت الرحلة شاقّة، لكني عندما تنفّست هواء بغداد شعرت بالراحة ونسيت كل التعب. الطقس حار في هذا الوقت في بغداد، كيف هو الطقس الآن في هولندا؟

[...] التقيت الكثير من صديقاتي وأقاربي، زرتُ جامعتي، جامعة بغداد، والتقيت زملائي والمدرّسين، لقد أمضيت وقتاً رائعاً. لكني وجدت أمّي متعبة جداً، مهما حاولت أنا وكمال إقناعها بالذهاب معنا والعيش في لندن، ترفض، وفي نفس الوقت تشجّعني على البقاء في لندن وإكمال دراستي.

مع الرسالة بطاقة، هذه صورة كهرمانة، شخصية معروفة من حكايات ألف ليلة وليلة، يقع التمثال في المنطقة التي أسكن فيها، الكرادة.

بلّغ سلامي إلى مارغريت العزيزة.

سأعود نهاية الشهر المقبل إلى لندن.

صديقتك المخلصة

سلمى

بغداد ٢٥- ٧ - ١٩٧٢

fb/mashro3pdf

(١٧)

لم ألتحق بكلية الآداب - جامعة البصرة، كما شاءت لي نتائج القبول، إلا بعد عام، بسبب وفاة صلاح، ورفض أبي. ولكنْ بعد محاولات، وافق أبي أخيراً على أن أسكن في بيت خالي محمد، رغم أني كنت أرغب في بيت خالتي كريمة، لكن أبي رفض «زوج خالتك رجل غريب» لم أناقشه في ذلك، وافقت على الفور، المهم أني سأواصل الدراسة، أذهب إلى البصرة، وبعيداً عن بيت أهلي. والحمد لله أن القبول كان في جامعة البصرة وليس في بغداد. لأن علاء كان يدرّس في جامعة بغداد ويسكن في بيت خالي الكبير.

أجمل أيام حياتي قضيتها في البصرة. في الجامعة، كنت دائماً مع هدى بنت خالتي التي تسبقني بعام في الدراسة، وأحياناً كنت أعود معها لبيتهم، وأبقى طوال اليوم هناك. بنات خالتي لا يعجبنَ والدي كثيراً، ونصحني بالابتعاد عنهنّ، «وكيحات» ويقصد هند بالتحديد، «وكيحة، مو راحة».

عشت في الظل دائماً، حتى في الكلية، أسمع القصص من حولي، وفي الليل، أتخيل أني بطلة تلك القصص. لا أجرؤ على رفض شيء، ولا الكلام عن موضوع ما. لم أعرف كيف أحدد ذلك. كل شيء كان يحكمه الخوف، حتى مشاعري. لم أسمع كلمة إعجاب من رجل، أو تلميح، أو حتى أشعر بأني موجودة أو مرغوبة، ولم أشعر بإعجاب طالب بي، كما يحدث مع الفتيات زميلاتي. الطلاب معي كانوا ينظرون لي كأخت لهم، هذا إذا شعروا بوجودي أصلاً.

fb/mashro3pdf

أنهيت مرحلة الدراسة الجامعية مثلما انتهت كل مراحل حياتي. تنتهي لتبدأ مرحلة أخرى. لا يمكنني الهروب من تلك الحلقات المتداخلة. الدراسة، الجامعة، الزواج، الأبناء، الأحفاد، ثم الموت.

صلاح ربما كان الوحيد الذي يراني، هو الوحيد الذي قال لي ذات مرة: «أنتِ ذكية جداً» عندما وجدت حلاً لإحدى المسائل الحسابية الصعبة. لم أشعر بما قال، ولم أصدقه. لم أستطع وقتها سماع صوت صلاح الجميل وسط كل الضوضاء التي كنت أعيشها... لكنْ الآن، أسمعه. أسمعه جيداً، وبوضوح: «آمنة... أنتِ ذكية جداً».

fb/mashro3pdf

(١٨)

عزيزتي سلمى:

استمتعي بوقتك بين أصدقائك وأهلك. سعيد جداً لأجلك. وأتمنى عودتك بفارغ الصبر.

الجو في هولندا جميل ومعتدل، و... التقيت ببعض الأصدقاء. أكتب لك رسالتي الآن من لندن، لقد عدت منذ أيام، لم تكن عطلة سعيدة كما كنت أظن، لذا فضلت العودة بسرعة. لقد شعرت أني غريبٌ هناك. بعد العمل، أذهب كل يوم - تقريباً - إلى المقهى، فقط لأتذكّرك.

جوان قطعت تواصلها معي تماماً، تتجنّبني في العمل، وإن صادفتها تشيح بوجهها عني، أو تنظر لي بغضب، ولا ترد سلامي. عرفت من زميل لي أنها تبحث عن عمل في مكان آخر. أعلم بأنها لن تغفر لي أبداً.

[...]

سلمى، عودي بسرعة، أرجوكِ.

مع الرسالة صورتان لي: في ساحة الدام - أمستردام، وقرب ساحل بحر الشمال - لاهاي.

صديقك المخلص
دافيد ٥- ٨ -١٩٧٢

fb/mashro3pdf

(١٩)

«بهذه السرعة؟!» ردّت سلمى، «وجوان؟» ... تتحدث وهي تنظر لي بغضب. «أرجوك، انسَ الأمر، هذه ثالث مرة تراني فيها، وتقول لي أحبك؟» لم تمنحني فرصة للكلام، كان لا بد لي أن أقاطعها، وضعت يدي على يدها، «منذ أن صافحتك، ونظرت إلى وجهك، أحببتك، صدّقيني...» سحبت يدها بسرعة. «كيف أصدّقك؟! أنا لا أعرفك. كل ما أعرفه عنك أنك صديق مارغريت، وأن جوان صديقتك، أو خطيبتك!» لم تسمح لي بالكلام بعد ذلك، وتركت المكان.

سلمى كانت تحبّ خطيبها جداً، زميلها في الدراسة. عندما ذهبت لإكمال دراستها في لندن، أقام علاقة مع زميلة له، وهي صديقة لسلمى أيضاً. كانت صدمتها كبيرة عندما تخلّى عنها، هكذا بسهولة، بعد غيابها بأشهر.

تشعرني سلمى دائماً أنها من عالم آخر، عالم من الصعب أن أعيش فيه. ومع ذلك، لا يمكنني أن أعيش بدونه.

عدت إلى شقتي في ذلك اليوم، وجدت جوان تنتظرني، «أين كنت؟» سألتني كأنها تعرف شيئاً. «جوان، يجب أن تنتهي علاقتي بكِ. هذا يكفي...» لم تسألني عن ماذا أتحدث، لم تستغرب كثيراً، لكنها غضبت، صُدمت لأن «ما كنت أشك به كان حقيقة، أليس كذلك؟ هناك أخرى!» قالت وهي تبكي. لن أنسى وجهها ذلك اليوم طوال حياتي. لقد مزّقت قلبي، يا لقسوتي ونذالتي. لم تقل شيئاً بعدها، ولم أحاول أن أتحدث معها، أو أعتذر لها. جمعت حاجياتها وغادرت بهدوء. لقد أحبّتني وصدّقتني أكثر من اللازم. أنا لا أستحقّها.

fb/mashro3pdf

فكّرت بسلمى حينها، نعم، مرة أخرى سلمى، كيف كانت ردّة فعلها عندما أخبرها خطيبها بنهاية علاقتهما؟ هل كانت تحبّه؟ والى أي حد؟ كل هذا كان يدور في عقلي، وجوان أمامي تبكي وتجمع أغراضها.

لم يكن لي خيار آخر. فعلت ذلك من قبل، مع أخريات صدقن بي، وخيبت آمالهن. لكني في كل مرة لم أشعر بالذنب. الأمر اختلف هذه المرة. لقد شعرت بحب جوان، كانت تحبّني من قلبها، خذلتها. كانت تعرف أني خنتها، شعرت بذلك، ولكنها كانت تتمنى أن يكون شعورها مجرد شكوك.

لمت نفسي على تسرّعي مع سلمى، كان تصرفاً أحمق مني، لكنها كانت تشعر عكس ما تصرّفت، لقد أحبتني منذ ذلك اللقاء، كما قالت لي في ما بعد.

كان عليّ أن أكسب ثقتها أولاً. «لنكن أصدقاء، انسي ما قلته لك، أرجوكِ» أذابت هذه الجملة الجليد بيننا، لكني بقيتُ حذراً في التعامل معها. تَطلّبَ مني ذلك صبراً عظيماً. ولكن الأمر يستحق، أن أظفر بسلمى في النهاية حتى لو كلّفني ذلك عمري كله. كان يكفيني أن تكون معي. لم أطلب أكثر من ذلك.

fb/mashro3pdf

(٢٠)

أتوقف كثيراً عند رقم عمري، خمسون عاماً. ليس في حياتي ما يثير الدهشة، لم أفعل شيئاً، لم أكن جيدة في شيء، أو متميزة في شيء ما. لم أكن بنتاً جيدة: «ما أعرف شنو فايدتك»(*) كانت تردد أمّي، ولا طالبة شاطرة: «شوفي هدى طلعت الأولى»(**) أبي، لست جميلة أو حتى متوسطة الجمال: «هاي الخلقة منو ياخذها»(***) علاء، ولا امرأة ذكية، لبقة، ولا زوجة صالحة: «أنتِ حاسبة روحچ مثل النسوان»(****) إبراهيم، ولا حتى أم جيدة: «أنتِ ليش مو مثل الأمهات؟»(*****) أحمد وسارة. لم أفعل شيئاً في حياتي سوى انتظار أن تحدث صدفة في حياتي، وأحاول أن أبدو مثل الآخرين. وحتى في هذا كنت فاشلة.

أفكّر بصلاح كثيراً منذ أن تعثّرت بأغراض دافيد. هناك شبه بينهما، الكتب والانتحار. حاول صلاح الانتحار بعد وفاة عمّي موفق أكثر من مرة. ركض إلى سكين المطبخ فور سماعه الخبر، تناول جرعة كبيرة من الحبوب

---

*) ما أعرف شنو فايدتك: لا أعلم ما نفعك؟ تقال عادة للكسول.

**) شوفي هدى طلعت الأولى: أنظري إلى هدى، نجحت وحصلت على المرتبة الأولى.

***) هاي الخلقة منو ياخذها: من سيتزوج امرأة بهذا الشكل. الخلقة: المظهر والملامح.

****) أنتِ حاسبة روحچ مثل النسوان: هل تظنين نفسك مثل النساء الأخريات. أي: في السلوك، الأخلاق والتصرف، بمعنى المقارنة.

*****) أنتِ ليش مو مثل الأمهات: لماذا لا تشبهين الأمهات الأخريات. أي في السلوك، الأخلاق والتصرف، بمعنى المقارنة.

fb/mashro3pdf

المهدئة التي وصفها له الطبيب، وأمسك بسلك كهرباء عارٍ. تداركنا موته على يديه في كل مرة. ولكننا تركناه للحرب.

غفوت قبل أن أكمل كوب النسكافيه وديوان الشريف الرضي على صدري. أفكر بصلاح وآخر مرة رأيته فيها. وحلمت. أو كأني رأيت ما رأيت حقيقة أمامي، بأني صعدت إلى البيتونة، وكان صلاح جالساً على الأريكة الحمراء وفي يده كتاب. ركضت إليه، وجلست عند ركبتيه «أخي صلاح، لا تزال حياً؟!» كان يرتدي قميصه الأبيض بخطوط زرقاء وبنطلونه الأسود. رفع وجهه لي وقال: «خذي آمنة» وأعطاني الكتاب. كتاب أحمر، مكتوب على غلافه: ديوان الشريف الرضي، محفور بخطٍّ ذهبي، الكتاب لا يشبه النسخة التي لدي.

أفقت من الحلم، أو ما ظننته حلماً، ودموعي تملأ عينيّ. ولكني كنت أشعر بكل شيء، دفء يدي صلاح، صوته في أذني، ركبتي، وأنا أجلس عليهما، هواء البيتونة البارد، شعرت بكل هذا كأنه كان حقيقة، وحتى رائحة الكتاب الذي أعطاه لي صلاح في الحلم «خذي، آمنة».

انتهى الحلم. بقيت في مكاني أبكي والكتاب بيدي. وبعد ساعات، وأنا على هذا الحال، ذهبت إلى الحمام أغسل وجهي. في طريقي إلى الحمام، انتبهت إلى نفسي في المرآة الطويلة التي أضعها في الممر «هذه أنا؟!!» قلتُ لنفسي، كأني أرى نفسي لأول مرة، وقفت قبالة المرآة، اقتربت أكثر فأكثر «هل هذه أنا؟» لم أنظر إلى نفسي في المرآة منذ فترة طويلة، طويلة جداً. أنظر إلى نفسي فقط عندما أضبط شالي قبل أن أخرج، لكني لا أراها، كنت أنظر إلى الشال، وليس لي. مَن هذه المرأة التي تقف أمامي في المرآة؟ لا أعرفها، امرأة، أو هكذا تبدو، سمينة، وجهها غاضب، حاجباها كثيفان، عيناها صغيرتان، لونهما باهت، لا حياة فيهما، وحول عينيها هالات سوداء، وجهها شاحب، وسمين، شعرها خفيف جداً، تبدو صلعاء، يستر صلعتها شعيرات يمكن عدّها، صدرها كبير، لكن كرشها

fb/mashro3pdf

بارز أكثر، يداها سمينتان، أنفها كبير، شفتاها رفيعتان، مَن هذه؟ وضعت يدي على وجهي، لم أكن أريد أن أرى هذه المرأة، لا أريد. طالما كرهت شكلي في المرآة، لا أرى نفسي جميلة، حتى عندما كنت شابّة، الجميع كان يؤكد لي ذلك، بطريقة أو بأخرى، وحمدت الله كثيراً عندما تقدّم لي إبراهيم وخطبني، كنت أشعر، أحياناً، أنه صاحب فضل عليّ. تزوّجني لأني: «امرأة شريفة وطاهرة، أنا لا أهتمّ بالشكل، المهمّ عندي الأخلاق والشرف» هذه هي الجملة الوحيدة الطيبة التي سمعتها منه في بداية زواجنا، تأكيد منه على أني شريفة وقبيحة أيضاً.

المرأة التي رأيتها منذ قليل في المرآة أرعبتني. ذهبت إلى سعاد، كنت أنوي أن أخبر سعاد بالحلم، ولكني وجدت مرتضى أون لاين. أثناء حديثي معه، بدأت تلح أسئلة كثيرة في رأسي، وصورتي في المرآة تتردد أمام عينيّ.

«مرتضى، هل لا تزال البيتونة مقفلة؟».

- «نعم...».

- «مرتضى، لقد اشتقت لكم. حلمت بصلاح و ... سآتي إلى العراق».

لم أفكر بما قلت، كان قراري مفاجئاً حتى لي.

- «يا أهلاً وسهلاً».

رحّب مرتضى كثيراً بالفكرة، كان يلحّ عليَّ بزيارة العراق كلما تحدثت معه، بل ويطلب مني العودة بشكل نهائي، خاصة بعد زواج سارة.

قررت، فجأة، زيارة العراق. في الحقيقة، أردت أن أهرب من تلك المرأة التي رأيتها في المرآة، أردت الهروب من نفسي، واشتقت لصلاح.

fb/mashro3pdf

(٢١)

عادت سلمى من بغداد، ومعها قَصَص محزنة. صديقتها الدكتورة حنان أُلقي القبض عليها في عيادتها ولا أحد يعرف عنها شيئاً، حنان شيوعية وناشطة في الحزب. سلمى أيضاً كانت مؤمنة بأهداف الحزب، لكنها لم تنتمِ له. لقد أحزنها خوف وذعر والدتها طوال بقائها في بغداد، وأحزنها أكثر موقف والدتها «لن أترك بغداد».

«لم تعد بغداد كما كانت» قالت سلمى.

وجدت سلمى عملاً في مكتبة الجامعة وصرفت النظر عن فكرة الدكتوراه «أريد أن أرسم» كان هذا هدفها القادم. «وربما أكتب».

تغيّرت كثيراً بعد أن عرفت سلمى دون أن أشعر بذلك. تركت النساء. كان وجهها يلبس وجه كل امرأة أراها وأتحدث معها. لا أرى سواها. وجودها كان كافياً في حياتي، حتى لو لم نتزوج. عامين كاملين كنا نتصرف كأصدقاء. لم أجرؤ خلالها على قول «أحبك» مرة أخرى. وهي، أيضاً، لم تجرؤ على قولها لي. كانت خائفة من تجربة أخرى. لكني وضعت حداً لخوفنا هذا ذات يوم، وقلت لها: «هل تتزوجيني؟» .

موافقة أهلها، اقتناعها بالزواج، تطلّب مني عاماً آخر. لكنها كانت أجمل سنوات حياتي. زرت بغداد معها خلال تلك السنة. كان الأمر مقلقاً، ولكنه تمّ على خير. كنت أريد أن أرى وأشعر بكل شيء حدّثتني عنه سلمى. رأيت بغداد كما حدّثتني عنها تماماً.

تزوّجنا في لندن في ربيع عام ١٩٧٤. ليت الزمن توقّف بنا عند ذلك اليوم.

fb/mashro3pdf

(٢٢)

آخر زيارة لي إلى العراق كانت في عام ٢٠٠٦. ذهبت مع أحمد وسليم، أخو إبراهيم الذي يسكن في هولندا، لنقل جثة إبراهيم إلى العراق. بعد شهر تقريباً من الإجراءات والوساطات للموافقة على نقل جثته عن طريق الكويت، حصلنا على الموافقة. ذهبت لتنفيذ وصية إبراهيم «أريد أن أُدفن في العراق، في النجف، قرب أمّي وأبي، لا أريد أن أدفن غريباً»، كان يردد ذلك طوال فترة مرضه. كانت الظروف في العراق قلقة. ولكننا - أخيراً - نفّذنا وصيته. «هل سنزور قبر أبي؟ هل سنتمكّن من ذلك؟» سألني أحمد. لم أكن أعرف ماذا أجيبه!

«لو دفنّاه في هولندا! أليس هذا أفضل؟! على الأقل سنزوره بين الحين والآخر».

«هذه وصيته».

«مَن سيزوره؟ ما فائدة مجاورته للموتى وهو ميت، نحن مَن نموت كلما تذكّرناه ولا نستطيع زيارة حتى قبره، لماذا لم يفكّر بنا، أنا وسارة وأنتِ؟».

عندما عدت إلى بيتي، شعرت أني قد وصلت إلى مكان آخر لا أعرفه. عرفت أن هناك بداية حياة جديدة بدون إبراهيم. مكانه، فراشه، أدويته، آخر مرة نقلناه إلى المستشفى، القرآن وكتاب الأدعية اللذان ظلا معه حتى وفاته. كان خائفاً جداً، ضعيفاً أمام المرض. ملابسه، أغراضه، ماكنة الحلاقة، حذاءه، نعاله، كل شيء كان في مكانه، كأنه ذهب إلى مكان ما، وسوف يعود، أو، لا يزال موجوداً. كان يتمنى العودة إلى العراق «أريد أن

fb/mashro3pdf

أموت بين أهلي» كان يقول ذلك كلما جاءت نتائج العلاج سلبية. لماذا نتمنى الموت في مكان لم نستطع أن نعيش فيه؟... راودته فكرة العودة إلى العراق بشكل نهائي بعد ٢٠٠٣، لكني والأولاد كنا نرفض.

منذ اليوم الذي سمع فيه إبراهيم من الطبيب أنه مريض بالسرطان تحول إلى رجل آخر لا أعرفه، رجل كنت أتمنى أن أعيش معه طوال حياتي، كنت أتمنى أن يكون إبراهيم بهذه الأخلاق. فترة مرضه قرّبتني منه أكثر ومن الأولاد، قرّبتنا جميعاً من بعضنا.

أخجل من نفسي كلما تذكّرت دعائي عليه بالموت والمرض أثناء خلافنا، لكني طلبت منه أن يسامحني. وهو أيضاً، طلب مني أن أسامحه، هو كان يدعو عليّ بنفس الدعاء «الله ياخذچ»(*). وعدته أني سأبذل قصارى جهدي وسأنفذ وصيته، والحمد لله أني فعلت، لو لم أفعل لشعرت بالذنب طوال حياتي.

سارة تأثرت كثيراً لمرض ووفاة والدها وعانت من الكآبة لفترة طويلة بعد وفاته. أحمد كان يحاول أن يتماسك من أجلي ومن أجل أخته. ولكنْ في رحلتنا إلى العراق كان ينهار بين الحين والآخر، ويغدو طفلاً يضع رأسه على صدري ويبكي.

رحلتي الشاقة الأخيرة إلى العراق، كنت أشعر فيها بألم مضاعف، موت إبراهيم وغربتي بين أهلي. رأيت الجميع من حولي كأنهم أناس آخرون لا أعرفهم، أراهم لأول مرة. لقد تغيّر أهلي كثيراً، طباعهم، تفكيرهم، كلامهم، أو ربما أنا مَن تغيّرت كما قالت لي سعاد. شعرت بغربة حقيقية بينهم، غربة أكبر من غربتي في هولندا وأنا بعيدة عنهم آلاف الأميال. لم أجرؤ على قول ذلك حتى لسعاد، أو أولادي، لأنه شعور غريب جداً، مؤلم، ومخجل.

---

*) الله ياخذچ: يتمنى موتها.

fb/mashro3pdf

لكنْ هذه المرة الأمر مختلف، أنا مَن يريد الذهاب إلى العراق، أنا قررت ذلك، شيء ما دفعني لذلك. ربما حياة دافيد فتحت لي أبواب الماضي الذي لا أخافه بعد الآن، بل صرت أبحث فيه. أصبحت الآن أرى الماضي بعين أخرى تماماً، كما أرى ماضي دافيد.

fb/mashro3pdf

(٢٣)

«كُتب!» قال أحمد وهو يمرر يده على كتب دافيد.

«نعم، كُتب» أجبته. «وما الغريب؟».

«لم تكن هذه الكتب موجودة من قبل، صح؟» ثم أشار بيده إلى اللوحة، «لمَن هذه اللوحة؟» هربت من أسئلة أحمد إلى المطبخ، إلى خلود زوجته. ولكنه ظلّ يلاحقني «سلمى! مَن سلمى؟».

«لا أدري، لوحة أعجبتني واشتريتها من محل الأغراض المستخدمة، كرنلوب سنتروم. والكتب أيضاً، اشتريتها من هناك» بدا عليّ الارتباك ولاحظ أحمد ذلك، وكذلك خلود، لذا حاولت خلود تخليصي من فضول زوجها. «كنت دائماً أريد أن أنصحك بالقراءة ماما، القراءة سوف تشغلك، وتملأ وقت فراغك، وها أنت تفعلين» خلّصتني خلود، ولكن أحمد ظلّ ينظر لي بقلق.

«أصبح لديك جار عراقي» قالت خلود أثناء العشاء.

- «مَن؟»

- «في الطابق الثاني، على ما أعتقد. رجل لطيف جداً، فور سماعه لهجتنا العراقية هرع إلينا، وبدأ الحديث معنا». ظننت أنه الساكن الجديد في شقة دافيد عندما سمعت ذلك.

«الساكن الذي كان قبله انتحر، وجدوه بعد شهر في شقته» أضاف أحمد. عندها تأكدت.

fb/mashro3pdf

«يبدو رجلاً اجتماعياً، تصوري - ماما - أعطاني رقم هاتفه الخاص لمجرد أني عراقي».

- «هذا لا يدلّ على أنه اجتماعي».

- «قال لنا: أنا في خدمة السيدة والدتك في أي شيء ولتعتبرني مثل أخيها».

- «هكذا، بسرعة!!» قلت. ضحك أحمد.

- «نعم، بسرعة».

- «هذا فطير»(*).

جاري الذي حكمت عليه بـ «الفطير» دون أن أعرفه، لا يحب أن يضيّع الوقت كما يبدو. بعد العشاء، اتصل بأحمد وأخبره بأنه يودّ زيارتنا وشرب الشاي معنا. أحمد رحّب به.

جهّزنا أنفسنا لزيارة الجار المفاجئة هذه، فتح له الباب أحمد. «يا الله» قال وهو يدخل بصوت عالٍ «السلام عليكم» صوته عال جداً. لكنْ عندما سمعت صوته قبل أن أراه، ظننت أنه كان يضحك وهو يتكلم، ولكن الأمر ليس كذلك، صوته يضحك، أو صوته يبدو كما لو أنه يضحك. رجل متوسط الطول، أسمر، شعره أبيض خفيف بعض الشيء من الأمام، وطويل من الخلف. عيناه واسعتان، أول شيء لفت انتباهي عندما نظرتُ في وجهه: عيناه. بدا لي عندما رأيته في نهاية الأربعينات من عمره. لكن «عمري ستون عاماً» قال وهو يعرّفنا بنفسه.

بصراحة، لا شيء مما قاله كان يهمّني، لا أريد أن أعرف أي شيء عنه، ما كان يهمّني وكنت أتمنى لو يتحدث عنه هو دافيد، كنت أنتظر منه ذلك بفارغ الصبر، ولكنه لم يفعل. كنت أريد أن أسأله عن دافيد، ماذا

*) فطير: ساذج جداً.

fb/mashro3pdf

وجد في شقته؟ هل بقي شيء من أغراض دافيد في الشقة؟ هل يعرف شيئاً عنه؟ ولكني ترددت. تركت جاري العراقي يثرثر مع أحمد، عن العراق وأهله وتاريخ العراق والسياسة والأكل. لم أنتبه إلى التفاصيل التي قالها عن نفسه وحياته. كنت أفكر أثناء ذلك برحلتي إلى العراق. لكني شعرت بأني أعرف هذا الرجل «عباس» من قبل. «كأني أعرفه» قلت لأحمد «قلت نفس الشيء لخلود عندما رأيته» ردّ أحمد.

«ما اسمك؟» سألني عباس، لم أجبه، لكني نظرت إلى أحمد بغضب، كان أحمد يحاول كتم ضحكته، يعضّ شفتيه وينظر إلى أظافره، أما خلود فوقفت بسرعة، وذهبت إلى المطبخ لتكمل شوطاً من الضحك هناك. «أم أحمد» أجبته أخيراً. ابتسم لي، ثم نظر إلى أحمد وضربه على كتفه بقوة «الله يخليه لك».

لم أنم تلك الليلة، قرأت الكثير من «الحرب والسلام» وبعد ذلك، شعر الرضي.

ردّوا الرحيلَ فإنّ القلبَ مرتحلٌ وسافروا إنّ دمعَ العين في سَفَرِ

ترى ماذا ينتظرني في العراق هذه المرة؟!

fb/mashro3pdf

(٢٤)

أحياناً أظن أن سبب افتتاني بسلمى هو كونها مختلفة تماماً عني، أردت الدخول إلى عالمها الذي لا أعرفه، والهروب من كل شيء أعرفه. كرّرت هذا كثيراً «الهروب من كل شيء أعرفه».

في السنة الأولى، كانت حياتنا تشبه رحلة، نزهة، لا أحد منا يريد لها أن تنتهي. سافرنا إلى معظم دول أوروبا. وفي كل مكان نذهب له يجب أن تتذكّر سلمى بغداد: «هذا الشارع فيه شيء من بغداد» أو «ذكّرني هذا المكان ببغداد». وعند زيارتنا هولندا، أحبّت سلمى هولندا كثيراً، وتمنّت لو نعيش فيها. لكن عملي في السفارة كان ممتازاً، وعملها في مكتبة الجامعة أيضاً، وحياتنا، أصدقاءنا في لندن، كل شيء كان رائعاً. إلا فكرة أن تكون أماً ظلت تحاصرها من كل جانب، تزعجها غالباً، حتى انعكس هذا على مزاجها ولوحاتها.

بعد سنتين من زواجنا، بدأت رحلتنا مع العيادات المتخصّصة والأطباء، «أريد طفلاً» تردد سلمى، بالنسبة لي «لا أريد طفلاً، لا أريد أبداً» لكني لم أجرؤ على قول هذا أمامها. يبدو أني كنت السبب. عدم رغبتي المرضية أمام رغبتها الطبيعية.

«دافيد، أنت لا تريد أطفال، أليس كذلك؟» لم أردّ عليها، وهي أيضاً، لم تقل شيئاً أكثر من ذلك. لكني، أحياناً، أرى غضباً متخفّياً في عينيها. وتنظر لي بلوم عند سؤال فضولي مثل: «هل لديكم أطفال؟»، «متى تصبحين أماً؟»، «ألا ترغبان بطفل؟»

fb/mashro3pdf

في ١٩٨٠، وجدت عملاً في أمستردام في شركة الخطوط الجوية الهولندية KLM، بقينا في هولندا عاماً وبعدها وافقت على العمل في مكاتب الشركة في الشرق الأوسط. عشنا عامين في الكويت، عمّان سنة، وبعدها مصر، المغرب، تونس، بيروت، وأخيراً إسطنبول، وزرنا بغداد مع وفد من السفارة في نهاية الحرب العراقية الإيرانية. كان قراري رائعاً، السفر جعل سلمى تنسى أمر الطفل.

. بعد عشر سنوات من الترحال، خطرت لي فكرة الاستقرار في هولندا. وجدت عملاً في المحاماة، في مكتب فان دايك للمحاماة إلى جانب عملي في جامعة أمستردام كأستاذ محاضر. وتم الأمر بالفعل. عدنا إلى هولندا في ١٩٩١.

انشغلت سلمى بالرسم، افتتحت معرضاً في أمستردام ومعرضاً في لندن. وكنت أخطّط لشراء منزل قريب من المكتب. لكنْ بدأت صحة سلمى تتراجع يوماً بعد آخر.

«سرطان الرحم» قال الطبيب أخيراً. وبدأنا رحلة أخرى معاً، رحلة حب أخيرة.

fb/mashro3pdf

(٢٥)

صور وأحداث تدور في رأسي قبل أن تنزل الطائرة القادمة من ديسلدورف أرض بغداد. حتى إني فكرت لو، لو تحوّل خط الطائرة مباشرة إلى الناصرية!. لأصل سريعاً إلى هناك. هدفي من الرحلة هو بيت أهلي.

سعاد وجعفر ومرتضى وعمّتي وابنها استقبلوني في المطار، كان عليّ أن أقف قليلاً وأنا أراهم من بعيد يلوّحون لي بأيديهم. هل، حقاً، أنا في العراق ؟! كان يجب أن أقف قليلاً لأصدق.

سعاد كانت تبكي، وبمجرد أن رأتني علا صوتها بالبكاء، مرتضى، أيضاً، بكى عندما رآني، أما أنا لم أبكِ، كنت باردة كالثلج، غير مصدّقة أني في العراق، حضنت مرتضى وسعاد، وحاولت أن أبتسم، ينبغي أن تكون هناك ردّة فعل ما. وعندما خرجنا من المطار، كانت عمّتي وابنها في انتظاري، تبكي أيضاً. لكن عمّتي نظرت لي نظرة عدم ارتياح، وتوقّفت عن البكاء بعد أن حضنتني وقبّلتني. ربما أحسّت أني ما عدت أنا.

كان هناك مَن ينتظرني في بيت سعاد، كثيرون! خالي وخالتي، وأولاد وبنات عمّي وعمّتي وأولاد خالي وخالتي... لم أرَ أحداً منهم، كنت منهكة من السفر. الجميع يتحدثون، يسألون، يضحكون، يبكون، تداخلت الوجوه أمامي، تدراكتني بنت سعاد، إيمان «خالة، اجلسي، ارتاحي» لاحظت أني سأقع على الأرض وسط هذا الحشد. «متعبة من الطريق» فسّرت سعاد للضيوف.

بعد العشاء، خفّت الوجوه وجلست، أخيراً، مع سعاد وحدنا. «متى سنذهب إلى الناصرية؟» سألت سعاد.

fb/mashro3pdf

- «ستبقين هنا كم يوم، ثم نذهب إلى الناصرية، لن أتركك ساعة واحدة».

- «كم يوم؟»

- «نعم، الكثير من أقاربنا يريدون رؤيتك، ودَعَوك إلى بيوتهم للغداء، أو العشاء، ونزور "أبو الجوادين" وبعدها نذهب للناصرية».

«لن ألبّي دعوة أحد»، قلت لسعاد. «متى نذهب إلى الناصرية ... غداً؟».

fb/mashro3pdf

(٢٦)

«لم يعد لما يحدث أيّ معنى» في كلّ مراجعة للمستشفى تردّد سلمى هذه العبارة. لم ترغب في الاستمرار «يجب أن تخضعي للعلاج، لا تضعفي سلمى، أرجوكِ» بعد استئصال الرحم، خضعت لجلسات العلاج الكيميائي. كانت مجرد محاولات يائسة. ما جعلها تعيش خمس سنوات أخرى هو إصرارها على الحياة.

كنا نسافر كثيراً تلك الفترة، أهملت المكتب، فكرت فعلياً بالاستقالة والاكتفاء بعملي في الجامعة. كنت أريد أن أظلّ معها طوال الوقت. كنت أشعر بالذعر لو غابت عن نظري لدقائق. وعندما أراها: «لا تفعلي بي هذا مرة ثانية».

«لم أفعل شيئاً.. كنت ....» لا أسمح لها أن تكمل وأحضنها بقوة.

أشعر بالضيق والذعر عندما أتصل من العمل ولا ترد «أنا بخير حبيبي، لا تقلق، أرجوك» كان قلقي يزعجها أحياناً.

لم نتحدث عن كيف ستكون الحياة بعد موتها، لم يجرؤ أحدنا على التفكير بذلك. لم نكن في سباق مع الزمن، وكانت سلمى تتصرف بشكل طبيعي تماماً، تقضي وقتها في ترتيب المنزل، الرسم والقراءة، واشترت مكتبتين كبيرتين، وضعتهما في غرفة الجلوس وبينهما كرسي بذراعين، كبير، أحمر، تجلس عليه لساعات وهي تستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية، أو موسيقى عود، أو مقام عراقي وأغاني عراقية قديمة.

«أتمنى أن يطول اليوم لأقرأ أكثر» كانت تقول. حاولت أن تتواصل مع

fb/mashro3pdf

عائلتي، لكني رفضت، ربما كانت تريد أن تحيطني بالناس بعد موتها. كانت توصي كمال بي، ترسل له الرسائل، تطلب منه أن لا يتركني وحدي، إن ماتت. كما عرفت ذلك من كمال لاحقاً.

قبل يومين من وفاتها، كنت أحضنها على السرير «دافيد، ماذا ستفعل لو سافرت ولم أعد؟» ضممتها إلى صدري، بقوة «لن تفعلي هذا أبداً».

- «افرض».

- «سأبحث عنك وألحق بك».

- «وإن لم تجدني؟».

- «سأجدك».

- «دافيد، إن لم تجدني، لا تبحث عني، سأكون بخير، أريد أن أراك سعيداً، أرجوك، كن سعيداً، افعل هذا من أجلي...».

- «سأفعل كل شيء من أجلك...».

لم أفِ بوعدي لها.

fb/mashro3pdf

(٢٧)

بيت أهلي لم يكن جحيماً، ربما كان بيتاً عادياً. لم تحدث فيه فظاعات سمعت عنها في بيوت أخرى. ربما كان أبي لطيفاً بطريقته، ربما كانت أمّي حنونة بطريقتها، أمّاً بطريقتها، هما لم يعرفا أفضل من ذلك.

أحياناً أقبض على نفسي وأنا «أمّي».

أمّي وأبي لم يكونا زوجين مثاليين، أو ربما عاديين، كانا يتصارعان طوال الوقت، الاستثنائي هو رؤيتهما يحضنان بعضهما أو حتى يبتسمان لبعضهما.

كنت أريد الهروب من ذلك المكان، بيت أهلي «الهروب من كل شيء أعرفه» ولكن الجميع كان يسحبني إليه لأعيش فيه. كنت أحاول الهروب بالدراسة، السفر إلى البصرة. لكنه هروب مؤقّت. لهذا كان الطريق الوحيد والأسلم للهروب من ذلك البيت إلى الأبد هو الزواج. خيار أخير وآمن لكل بنت ليست سعيدة في بيت أهلها. هربت إلى بيت إبراهيم، بيت آخر، مكان آخر، ولكنّ الحياة فيه لم تختلف كثيراً.

بالنسبة لعائلة إبراهيم، كنت كنّة غير محبوبة، وعشت حياة الكنّة والعمّة كما يجب. مشاكل على الأعمال المنزلية، على خروجي مع إبراهيم، على أي شيء نشتريه أو لا نشتريه، وكان إبراهيم يحاول أن يكون رجلاً عادلاً، ولكنه ظل «طرطور»(*) بالنسبة لأمّه إذا حاول الدفاع عني، وبالنسبة لي

*) طرطور: ضعيف الشخصية. متردد.

fb/mashro3pdf

«طرطور» إذا حاول الدفاع عن أهله. هو «طرطور» على أيّ حال. وأنا... كنّة على أيّ حال.

دوماً كانت الأمور تبدو أجمل في بيوت أخرى، ربما وقعت أنا نفسي في شرك المقارنة الذي تربّيت عليه. كانت بيوت صديقاتي أجمل، البيوت التي نراها في الأفلام أجمل، أهل صديقاتي أفضل، زوج صديقتي أفضل، وحتى أبناء الآخرين. لكن البيوت تغيّرت، وبقيت أنا كما أنا.

ذكرياتي في بيت أهلي مؤلمة، محبطة، ولا تمتلك أشياءها. بل على العكس، حاولت أن أتخلّص من أشيائها. رميت بدفتر يوميات مضحك كنت أكتب فيه يومياتي في التنور خوفاً من أن يراه أحد. أحرقت صور زواجي كلها عندما تشاجرت ذات مرة مع إبراهيم وقال لي بأني أبدو مثل حيوانة، ولم يرني جميلة حتى بثوب العرس. تخلصت من أشياء إبراهيم القليلة بعد زواج سارة. تخلّصت من ثوب عرسي بعد أشهر من زواجي وادّعيت أن الفأرة أتلفته. تخلّصت من عبء دراستي وشهادتي وأصبحت أماً فاشلة، تخلّصت من ذكريات طفولتي وشبابي بالأكل. تخلّصت من بيت أهلي وابتعدت. تخلّصت من كل أشياء الماضي.

والآن، أقف في حديقة بيت أهلي وأراه مكاناً آخر تماماً. ما أتذكّره عن بيتنا ليس له أي علاقة بهذا البيت. لكنّ صلاح، هناك، لوّح لي بيده من شباك البيتونة.

fb/mashro3pdf

(٢٨)

أخبار العراق تزيد من تعبها أكثر فأكثر. لا يمكنني أن أمنعها من ذلك. «يا إلهي...» نطقت أخيراً بعد أن رأينا وثائقياً عن الحصار الاقتصادي على العراق، امرأة في المستشفى، بلّغتها الممرضة موت رضيعها، ظلّت تصرخ وتضرب رأسها، حتى تعبت من الصراخ والبكاء، وجلست عاجزة تسند ظهرها على الحائط. نهضت سلمى فوراً، ذهبت إلى الغرفة المجاورة حيث ترسم، وضعت لوحة كبيرة، وظلّت ترسم، غفوت على الأريكة في الغرفة وأنا أنظر لها. هذا أفضل، قلت لنفسي، لعلّها تشعر بالراحة بعد أن تنتهي من اللوحة.

كانت سلمى وأخوها يرسلان مبالغ إلى بغداد بين الحين والآخر، وعند مرض والدتها، أصرّ كمال على أن تأتي للعلاج في لندن، وفعلاً، جاءت أم سلمى واستقرت في لندن. لم تعرف عن مرض سلمى أي شيء، خوفاً من تدهور صحتها هي الأخرى. لكن كمال وسلمى استمرا في إرسال مبالغ شهرية إلى أقاربهم ومعارفهم هناك.

في اليوم التالي، عدت من العمل، ووجدتها ترسم لوحة أخرى، قباب، ألوان شرقية فرحة، نظرت لي وابتسمت «هاي ديفي».

«هل تخلّصتِ من لوحة البارحة؟».

«لا! المرأة هناك».

fb/mashro3pdf

لقد جعلت المرأة تبدو مثل نهر يجري. قلبت اللوحة. المرأة الآن تحمل القباب، الأشجار، الناس، الشوارع، الكنيسة، بغداد كلها تحملها على جسدها...

«يجب أن يكون لها طفل آخر...».

fb/mashro3pdf

(٢٩)

طوال إقامتي في الناصرية، كنت أنام في غرفة صلاح، لقد تغيّر بيت أهلي تماماً عن ما أذكره في آخر زيارة لي، لكنّ غرفة صلاح كما هي. «والبيتونة لم نفتحها، نسينا وجودها تماماً» قال مرتضى. «أريد أن أراها» طلبت منه... بعد أيام وافق مرتضى.

دفعنا الكنتور، فتحنا الباب، كل شيء في مكانه، كما لو أن صلاح غادر الغرفة الآن. بدأت سعاد بالبكاء، مرتضى أيضاً وزوجته رباب التي كانت خائفة بعض الشيء. الفئران ضجّت تبحث لها عن مخرج، الأريكة الحمراء تالفة. الكتب يغطّيها الغبار. كأني أرى المكتبة لأول مرة.

«سأنظّف الغرفة» قلت لمرتضى وسعاد.

. «لا تتعبي نفسك، أنا ورباب سننظّفها» رد مرتضى.

. «وأنا معكم».

. «حسناً، لكنْ ليس الآن».

في اليوم التالي بعد صلاة الفجر، صعدت إلى البيتونة وحدي، كانوا نائمين، وبدأت بتنظيف البيتونة، لم أفكر بشيء حينها، إلا كيف سأنتهي من كل هذا الغبار. لحقت بي سعاد، مرتضى وزوجته، انتهينا في اليوم التالي عصراً من التنظيف، فرغت كل الكتب من المكتبة ونظّفتها من الغبار، أغلبها كانت جيدة «هذا أفضل كتاب اشتريته» كان يقول صلاح عن كل كتاب في هذه المكتبة.

fb/mashro3pdf

«هذه الكتب كنوز، شكراً أم أحمد» قال مرتضى وهو يساعدني في ترتيب الكتب. مرتضى قارئ ممتاز أيضاً، ولديه مكتبة عامرة في غرفة الجلوس وأخرى في غرفة نومه.

على الطاولة عندما دخلنا الغرفة، كان هناك كتاب مفتوح، كتاب كبير نوعاً ما، لونه أحمر، لم أشكّ للحظة أنه كتاب الشريف الرضي. نسخة صلاح.

كانت هناك ورقة صغيرة في الكتاب، مكتوب فيها:

«أريد الخلاص من هذه الحياة. لا أطيق العيش مع كل هذا الظلم. لقد قتلوا عمّي موفق ولم نفعل شيئاً، سحبوه من بيننا وأولاده يبكون ولم نفعل شيئاً، قتلوه دون ذنب ولم نفعل شيئاً. أريد التحرر من هذا الذنب. أمّي أبي علاء سعاد آمنة مرتضى ... سأقتل نفسي».

كنت على حقّ. صلاح لا يزال هنا.

ومـوتُ الفتـى خيرٌ لهُ مـن حياته إذا جـاورَ الأيـامَ وهـو ذليـل

fb/mashro3pdf

(٣٠)

قررنا أنا وإبراهيم الرحيل عن العراق. سليم أخو إبراهيم شجّعنا على ذلك، خاصة بعد المضايقات التي تعرّض لها إبراهيم في عمله. بعد تخرّج سليم من الجامعة، وفي نفس السنة اندلعت حرب الخليج، وطلبوا مواليده للالتحاق بالخدمة العسكرية. لكن سليماً رفض ذلك وهرب من المنزل، ولم نعرف عنه أي شيء لسنة كاملة، هرب معه علاء، توجّها إلى رفح، السعودية. كان هذا سبباً لمزيد من النزاع والشجار والمشاكل بيني وبين أهل إبراهيم، صرت متّهمة أنا وأهلي أمامهم «علاء، أخوج هو السبب». بعدها بسنتين اتصل بنا سليم من هولندا. وعلاء من أمريكا.

«سليم ابنكم فرار» كان يردد ابن عمّ إبراهيم، المسؤول البعثي الذي خلّص إبراهيم وعمّي، والد إبراهيم، من مشاكل كثيرة، سجن وتحقيق، بفضل مكانته ونفوذه.

كانت أياماً ثقيلة ومتعبة وطويلة تلك الأيام التي سبقت خروجنا من العراق، كنت مترددة في السفر، خائفة من المستقبل، ولا أنظر إلى أبعد من الوصول إلى عمّان بأمان.

لم أتمكّن من وداع كل شيء، كل مكان، كل مَن أعرفه في العراق. حتى إني لم أودّع بيت أهلي في الناصرية. عمّتي وأمّي وأخوتي جاؤوا إلى بغداد لوداعي. أمّي كانت مريضة، زاد مرضها بعد اختفاء علاء «صلاح، علاء، والآن أنتِ».

أهل إبراهيم وأهلي ذهبوا معنا إلى كراج العلاوي. ودّعت الجميع، ثم

fb/mashro3pdf

جاء دور أمّي. وقفت أمامها، أنظر إلى تفاصيل وجهها، يديها المتعبتين، وعيناها تتوسلان أن لا أذهب. كنت أريد أن أراها فقط، كنت أريد أن أحفظ ملامحها. لكنها طوّقتني بذراعيها، وكأنها تقول هذا يكفي. حضنتها طويلاً، وكان آخر شيء أسمعه منها: «آمنة ديري بالچ(*) على نفسچ(**) يمّه(***)، ديري بالچ على أولادچ(****)، ديري بالچ على إبراهيم يمّه، عفية(*****) بنتي»، شعرت بأنها أمّي تلك اللحظة، كأني لم أعرفها من قبل. لماذا لم تخبرني بهذا من قبل؟ بأني مهمّة عندها إلى هذا الحدّ؟ لماذا لم تشعرني بهذا إلا الآن. «سامحيني يمّه» قلت لها، وكأنني أردتها أن تغفر لي ظنوني عنها طوال حياتي. ظنوني التي احتفظت بها لنفسي، ولم تعرف عنها شيئاً.

ركبنا الحافلة. جلست إلى النافذة، وأمعنت النظر في وجه أمّي، سعاد، عمّي، وعمّتي. كان عمّي يبكي، لم أره يبكي من قبل، وكان خائفاً، نظرة الخوف نفسها التي رأيتها في عيني أبي من قبل عندما خرج صلاح آخر مرة من المنزل. سعاد كانت تبكي بيأس وتمسك بيد زوجها، وأمّي جلست على الأرض. كانت هذه آخر مرة أراها.

لم أكن أنظر إلى شوارع بغداد، كانت وجوه أهلي، وخاصة أمّي تخطف من أمامي. كلام أمّي ودموعها، وجه سعاد، عمّي وعمّتي. وكلما اقتربنا من الحدود، ذكّرني إبراهيم بخوفه من ضباط السيطرة، من المجهول الذي ينتظرنا. لم أكن خائفة، كنت منهكة، لقد رأينا أكثر من ذلك سنوات حياتنا في العراق.

---

*) ديري بالچ: اعتني بـ، اهتمي بـ.

**) نفسچ: نفسك.

***) يمّه: اسم مناداة للأم، يستخدمه الجنوبيون حتى الآن.

****) أولادچ: أولادك

*****) عفية: أحسنتِ

fb/mashro3pdf

كنت أردّد مع نفسي «إلى أين يا آمنة؟» إلى أين؟ إلى جانبي يجلس رجل لا أحبه، ولا يمكنني وضع يدي في يده أو وضع رأسي على كتفه لو غالبني النوم في الباص، أو حتى البكاء على صدره. وفي حضني ولداي اللذان لا أعلم أي مستقبل ينتظرهما. وأمامي المجهول. إلى أين يا آمنة؟.

إلى الآن لم أعرف الإجابة.

fb/mashro3pdf

(٣١)

«من الأفضل أن تبقى في البيت» قال الطبيب، وهذا يعني أن لا فائدة من وجودها في المستشفى، لا يوجد علاج لها، لا داعٍ لبقائها هنا، كانت زيارة المستشفى الأمل الذي ألعب به، أصدّقه، وأحتاجه لأتحمّل.

«اتصل بكمال وأمّي، أريدهما معي» اتصلت بهما فوراً.

تصرفت طوال الوقت مع مرضها بشكل عادي، وكم كلّفني هذا، وكم تحمّلت كي أبقى عادياً وهادئاً أمامها. أن تكون طبيعياً في وضع غير طبيعي بالمرة، كم هذا كثير!.

قبل أن تصل والدتها وأخوها بيوم، استيقظت صباحاً، وكانت ميتة. «سلمى، سلمى...» قلت بسرعة، بهدوء، ثم بدأت أصرخ اسمها «سلمى، سلمى ...».

حضنتها، قبّلتها، جسدها كان بارداً، غطّيتها، كأن شيئاً لم يحدث، أمسكت الصليب الذي كان قرب السرير ورفعته إلى السماء «أيها الرب، لا أصدّقك، لا أشعر بك، لكن سلمى كانت مؤمنة بك، مؤمنة بك جداً، ردّ روحها لها، لا تأخذها مني، لستَ بحاجة لها، سلمى آمنت بك، كانت تصلّي لك كل يوم، اشفها الآن، أحيها الآن، الآن، لا تأخذها مني... أرجوك». ردّدت هذا طويلاً، ربما لساعات دون أن أشعر، ولم يسمعني ربّ سلمى. كان هذا سبباً آخر كافياً لأنساه ولا أفكر به نهائياً.

بقيت معها على السرير إلى اليوم التالي، لم أتصل بالمستشفى، لم أرد على الهاتف، ولم أذهب إلى المطار كما وعدت كمال.

fb/mashro3pdf

توقّف كل شيء في حياتي تلك اللحظة، ليتني لم أنم، كان يجب أن أظلّ مستيقظاً.

وصلت أمّها وأخوها في اليوم التالي، لم تتحمّل المسكينة كل هذا وتدهورت صحتها، وكان على كمال الاهتمام بوالدته وتحمّل صدمة موت سلمى.

كان يلوم نفسه هو أيضاً. غارق في متعه ونفسه وجمع المال الذي يحبّه أكثر من أي شيء آخر «كان عليّ أن أظلّ معها، أن أقدّم موعد سفري، كان يجب...».

حضر كل أصدقائنا الجنازة من لندن، هولندا، وتمّ كل شيء كما يجب، لا أعلم كيف تحمّلت كل هذا. نزلت إلى قبرها أمام عيني، لكني لم أصدّق موتها. لذا عندما عدت إلى المنزل ولم أجدها، فكّرت أن أحرق المنزل، جمعت كل أشيائها حولي، ملابسها، عطورها، رسوماتها، أحذيتها، كتبها... وأشعلت النار فيها، في كل المنزل، ووقفت، وأنا أنظر لكل شيء وهو يحترق.

لو تأخّر كمال قليلاً، لتم كل شيء على ما يرام، ولحقت بها فوراً.

fb/mashro3pdf

(٣٢)

عبد الرحمن، جارنا، الابن الوحيد لوالديه. حلم بنات منطقتنا، كل البنات إلا سعاد، تكرهه. حاول لفت انتباهها كثيراً: يرمي لها الرسائل في السطح عندما تنشر الملابس، يقف في طريقها عند ذهابها للسوق أو المدرسة، وأخيراً طلب يدها للزواج، ولم توافق. وأبي لم يوافق أيضاً، «سكّير ومدلّل(*) وسرسري(**)» قال أبي عنه. عبد الرحمن كان بطل أحلامي أنا. أنا مَن كنت أتمنى أن ينظر لي ولو بالصدفة.

يجلس الآن أمامي. جاء لشرب الشاي والحديث مع مرتضى كعادته. لايزال وسيماً مثل أبطال السينما، لم يتغيّر كثيراً، أصبح أنحف ربما «كيف الحال أمّ أحمد؟» نظر لي وابتسم، صرت أتساءل إن كان جاء لمرتضى أم لرؤية سعاد؟ «لا تزالين تذكرين؟» ضحكت سعاد على سؤالي. «كل شيء تغيّر» هذه هي الحقيقة، كل شيء قد تغيّر.

تزوج عبد الرحمن من بنت خالته، ليس لديه أولاد. ماتت زوجته في حادث سيارة مع أخيها منذ خمس سنوات. يعيش في بيت أهله وحده. «يقرأ كثيراً... حصل على الماجستير في الكيمياء ... ويدير عقارات والده، و...» تحدّث مرتضى عنه. كأنه يقصد شخصاً آخر «معقول؟».

خرج بعد ساعة، راقبته من النافذة وهو يقف في الحديقة مع مرتضى. ترى كيف رآني عبد الرحمن الآن؟ كيف كان ينظر لي عندما كنت شابّة؟ هذا لو نظر لي أصلاً.

---

*) مدلل: المقصود به هنا: الابن الوحيد الذي فسدت تربيته بسبب الدلال.

**) سرسري: عابث، فاسد.

fb/mashro3pdf

كان صديق علاء المقرّب، من رفاق الكأس. انقطعت علاقة علاء به في جلسة سكر في بيته. «أختك سعاد تخبل، أحبها...». «هاااا .... ولك عبيد!!!» ضرب علاء عبد الرحمن، ولم يرفع يده عنه حتى تدخّل أبي بنفسه بعد أن عجز أهل عبد الرحمن عن ذلك. صفع أبي علاء على وجهه وسحبه من ياقته إلى البيت. كانت هذه آخر سهرة لهما، وبعدها لم تعد علاقتهما كما كانت.

بقي لي أسبوع وأعود بعدها إلى بيتي في هولندا. أجلس، أشرب شاي العصر، وأنام في البيتونة. أقلّب كتب صلاح واحداً واحداً. شعرت بروحه في كل كتاب. ليس لدي رغبة في العودة إلى هولندا. أتمنّى لو أظل بين كتب أخي ما تبقّى من عمري. حقيقة هذا ما تمنّيته.

لكنّ اتصالاً من سارة غيّر كل شيء. سارة في هولندا منذ أسبوع.

«ماما، آني بخير».

لم أصدّقها.

fb/mashro3pdf

(٣٣)

هيخو وبيتر سعيا لإدخالي مصحاً نفسياً في دربنته. سنة كاملة. الأدوية جعلتني مثل قطعة لحم، لا مشاعر، لا تفكير، ولا خيال. تحايلت على الأدوية والأطباء كثيراً، مثل طفل يريد أن يعرف أين هو، وما هو مصيره في هذه اللعبة. قلق وخائف طوال الوقت من كل شيء. محاولة بائسة أخرى للموت باءت بالفشل هناك، سرقت دواءً لمرضى آخرين، وتناولته دفعة واحدة، كان اقتراحاً من جدّتي لإنهاء هذه المهزلة «اقتل نفسك، ماذا تنتظر، لن يصدقك أحد ... سلمى ليست هنا...» عُزلت بعدها في غرفة وحدي.

«هل ترى أحداً تعرفه يتحدث معك؟» كرّر هيخو هذا السؤال الممل. «لا، مع الدواء لا أرى أحداً. اطمئنّ» لم يصدّقني، خاصة بعد محاولتي الوحيدة للانتحار في المصحّة. «دافيد، أنت لست وحدك، تذكّر هذا دائماً» يبتسم لي، ويتركني وحدي تماماً. كان صادقاً. لكنْ لا يمكن لأي أحد أن يفعل لي شيئاً. لأني لا أريد الحياة، الاستمرار في الحياة.

بعد خروجي من المصحّة، رتّب لي هيخو وبيتر كل شيء للحياة بأمان ودون قلق، كانا يرعيانني كطفل صغير. هيخو كان يعيش معي تقريباً في الأشهر الست الأولى. في أمستردام وقبل أن أنتقل إلى شقتي هذه في أوترخت.

ريناتا جارتي، حاولت أن تكون جارة صالحة معي، لكني لم أُقدّر لها ذلك. فضولية، ثرثارة، ولا تصمت إلا إذا أحرجتها. أُشفق عليها أحياناً، ربما هذه هي طريقتها لمصارعة الوحدة.

fb/mashro3pdf

لكنْ في أحد الأيام، فتحت الباب، وإذا بطفلة، عينان زرقاوان، وشعر أصفر، تقف أمامي، وجه مثل... شمس «تفضل» رفعت طبقاً من الكعك بيديها الصغيرتين «هذا الكعك صنعته مع جدّتي. هي أرسلته لك...» حفيدة ريناتا.

«شكراً أيها الملاك» قلت لها. كانت ملاكي، الملاك الذي مدّ سنيناً أخرى في حياتي. كلما زارت «روز» جدّتها، تأتي لزيارتي. تحكي لي قصصاً لا أفهمها، نضحك، نلعب، نركض خلف بعضنا. وريناتا تراقبنا وتبتسم لنا من بعيد، دون أن تقول كلمة، وهذا رائع حقاً.

روز تحب الكتب، القصص، أشتري لها بين الحين والآخر كتباً. ظهورها في حياتي أعاد لي شغفي بكتب جدّي وأيام طفولتي. قال لي هيخو إن كتب جدّي انتشرت هنا وهناك، بعض منها لا يزال في بيت بنت خالتي شارلوت، أما بيت جدي فاختفى إلى الأبد، تحوّل إلى شارع لمحلات تجارية.

بيت جدّي لم يبق منه سوى الكتب «هنا وهناك» كما قال هيخو. ذاكرتي تحتفظ بكل شيء، بكل أسماء كتب مكتبة جدّي، بصوره، ملابسه، تذكاراته وتحفياته. حرقت كل شيء لسلمى، لم يبقَ من كل هذا إلا صوراً نسيتها في لحظة جنوني في أحد الأدراج، أنا وسلمى في مقهى، أنا وسلمى نقرأ، أنا وسلمى أمام لوحتها، أنا أُقبّل سلمى وهي تضحك بخجل، وأنا أجلس وأقرأ كتاباً وفي فمي سيجارة وأنظر إلى سلمى وهي تلتقط لي هذه الصورة. صورتها الكبيرة المعلّقة على جدار الحائط، أخذها معه بيتر «عندما تتحسّن تماماً، سأعيدها إليك» وباقي صورها ولوحاتها أخذها كمال معه.

لماذا قسوت على ذكرياتها إلى هذا الحد؟ لماذا رفضت أن يكون لي طفل منها؟ طفلة مثل روز؟ كنت أريدها لي وحدي لهذه الدرجة؟.

بعد محاولات الخلاص هذه ... ترى ماذا سيتبقّى مني «هنا وهناك؟».

fb/mashro3pdf

(٣٤)

«أريد الطلاق منه؟»

اكتشفت أن ميثم كانت له علاقة بزميلته في الجامعة قبل أن يتعرف على سارة، اسمها رانيا، لم يتم زواجهما لأسباب كثيرة، منها رفض أهله لها. لكن علاقتهما عادت بعد أشهر من زواجه «ينام وياها...» قالت سارة ورأسها على صدري ولم تكف عن البكاء.

«طلاق؟!» مرعبة هذه الكلمة لأيّ أم.

أصرّت على الطلاق منه. طلبنا منه وأهله أن يتم كل شيء بهدوء. ذهب أحمد مع سارة إلى لندن وأتما كل شيء هناك. في انتظار عودتهما، كان جاري عباس يسأل كل يوم عن سارة. كان يعتني بسارة طوال غيابي، واتضح أنها قالت له كل شيء، وأصبحا أصدقاء. كسب ثقتها بسرعة، ولا أفهم كيف!.

أصبحت أراه في كل مكان. في السوق، البلدية، الشارع، الحديقة العامة قرب البناية. أشعر، أحياناً، أنه يراقبني. لكنْ لم يزعجني ذلك.

كان ينظر لي بطريقة أحبّها، يشعرني كأنه يعرفني جيداً، ويرى في مظهري شيئاً جميلاً. ينظر في عينيّ. وأنا كنت أتجنّب النظر إليه دائماً.

«هل تذهبين إلى المكتبة العامة؟» كان قد لاحظ في زيارته لشقتي كتب دافيد. ساعدني في عمل اشتراك في المكتبة. وهناك كنت أراه كلما ذهبت صباحاً، يقرأ الصحف ويشرب قهوته. أحياناً يبدو عليه سنّه وحتى أكبر. وأحياناً أخرى يبدو فتياً.

fb/mashro3pdf

«أحبّ الحديث معك» جاء وجلس أمامي في المكتبة في إحدى المرات، دون أن يستأذن. «حدّثيني عن نفسك...» قال مباشرة، نظرت إلى الكتاب الذي بين يدي، ثم نظرت نحوه «ماذا أقول عن نفسي» وفكرت بعدها قليلاً «وماذا يهمّك في حياتي؟» كان صوتي يرجف.

«جارتي وأم سارة، وكلانا عراقيان في هولندا. ألا يكفي هذا؟».

كنت أنتظر رداً آخر، في مشهد رأيته في أحد الأفلام على نفس السؤال. عموماً، ليس كل ما يحدث في الأفلام يصلح للواقع.

«ماذا تريد أن تعرف؟» كان جسمي كله مشدوداً وأنا أتحدث معه. «لنبدأ بالكتب...».

لم يكن لدي الكثير لأقوله، بدأت علاقتي بالكتب منذ أشهر قليلة.

«حسناً، سأتحدث أنا لو أحببتِ».

من البصرة إلى سوريا إلى هولندا. تزوج من سيدة هولندية مطلقة ولديها ولدان، لكنه لم يستمرّ معها إلا عشر سنوات. وبعد طلاقه منها عرف نساء كثيرات. «وقبلها أيضاً، في العراق وسوريا وهولندا و...» قال وكأنه قد تعمّد الكلام حول هذا الموضوع. لم يكن يهمّني كل ذلك.

مهندس مدني في العراق، لكنْ في هولندا طوّر هوايته في الرسم. عمل أعمالاً كثيرة، عامل في مخزن، في مطعم، ورسام هندسي في إحدى الشركات الهندسية. توقّف عن الكلام: «هل تسمعين ما أقول؟» كنت أسمعه ولا أنظر له.

«نعم، بالتأكيد».

ضحك، وزاد خجلي بالطبع.

نظرت إلى ساعتي «يجب أن أذهب إلى البيت» هربت منه إلى شقتي بسرعة.

fb/mashro3pdf

أنا لم أسمع ما قاله فقط، لقد حفظت كل شيء قاله عن نفسه. ردّدته جملة جملة طوال ذلك اليوم. قلبي ينبض بسرعة كلما تذكّرته.

وقبل أن أنام تخيّلت أشياء كثيرة «لو» تحدث بيني وبين عباس. لكني كنت في خيالي أكثر رشاقة وجمالاً وشباباً. ودائماً، خيالي الجميل «الخفيف» لا يناسب مظهري المضحك هذا.

ردعت هذا الخيال المتصابي، وذكرّت نفسي جيداً:

«لم يحبّني رجل من قبل؟!... نامي!».

fb/mashro3pdf

(٣٥)

«روز ستسافر إلى سورينام» افتتح والدها فندقاً وسينتقلون للعيش هناك. كنت قد اشتريت لها لعبة باربي، ظلّت معي مغلفة بورق الهدايا، حتى رأيت حفيدة سميرة ذات مرة فأعطيتها اللعبة.

لم يبقَ ممّن أحبهم شيئاً. سوى رسائل، لوحة، صور وأشباح.

الموتى يزدادون من حولي، تظهر جدّتي لفترة طويلة في اليوم، أكثر من السابق، وسلمى أحياناً. أصبحت رؤية جدّتي وسلمى مصدر إرهاق لي. ما الفائدة أني أراها وأعلم أنها ليست هي؟ ما الفائدة مما تقوله لي جدّتي وينتهي بإحراق المنزل أو بمحاولة انتحار فاشلة ترهقني أكثر؟.

تشاجرت مع جدّتي ذات مرة «ألم تموتي، اذهبي عني، إما أن تقتليني أو تذهبي عني...».

ومع سلمى «اقتربي مني، أريد أن ألمسك، أريد أن أنظر إلى عينيك ... تعالي اقتربي...» فتهرب. تختفي مثل شبح، هي شبح إذن، لا يراه أحد إلا أنا وروز.

«هناك سيدة جميلة في الغرفة، تقف إلى جانب تلك اللوحة، هل هي زوجتك؟». قالت لي ذات مرة. ليتني أراها، كما كانت تراها روز. كانت تراها بشكل آخر.

«وماذا قالت لك؟».

«لم تقل شيئاً، ابتسمت لي فقط».

fb/mashro3pdf

«شعرها طويل، طويل، طويل» ردّدت روز وهي تمرّر يديها على رأسها حتى ركبتيها.

وكلما زارتني روز، سألتها «هل ترين زوجتي الآن؟».

هذه القصة أشعرت جدّتها بالقلق.. «لا تقلقي عزيزتي، هي قصة نتسلى بها» طمّنتها.

كانت روز حجّة لجدّتها لزيارتي ورؤيتي والاهتمام بي، هذا ما عرفته لاحقاً بعد غياب روز. كانت ريناتا تحبّني. لم تخفِ هذا أخيراً. في مرة، حاولت أن تُقبّلني، فدفعتها بلطف: «لا. لا تفعلي» قلت لها وأنا أنظر مباشرة في عينيها.

روز اختفت هي الأخرى، ولن أرى لها خيالاً مثلما حدث مع جدّتي وسلمى. لم تمت بعد. لأني لا أرى إلا الموتى.

لقد أصبحت منهم منذ زمن طويل.

fb/mashro3pdf

(٣٦)

تعلّقت بعباس. هذا ما حدث بالفعل، أشعر بضيق إن لم أره يوماً. بدأت أهتمّ بنفسي واشتريت ملابس جديدة.

رحلة السوق مع سارة أتعبتني كثيراً. كلما قست ثوباً، أنظر إلى نفسي في المرآة، وأرى كل هذا الترهل، الكرش، وأشعر باليأس: «ماما، والله حلو...».

«يلعب النفس...»(*) أجيبها. أريد أن أرى نفسي كما أراها في خيالي. يا لهذا العجز!

أخيراً، ذهبت مع سارة إلى صالون الحلاقة النسائية، صاحبة الصالون سيدة تركية «ما هذا!!» صاحت عندما رفعت الشال عن رأسي. كانت ماهرة جداً، وجعلت شعري الهزيل يبدو أكثف قليلاً، وصبغته بلون رمادي داكن. وبعدها جاءت سيدة إيرانية، أشارت لنا إلى غرفة مجاورة وهي تشير بالخيط الملفوف حول أصابعها إلى جهة الغرفة. «من هنا».

في ذلك اليوم، نظرت طويلاً إلى وجهي في المرآة.

---

*) يلعب النفس: تستخدم في التعبير عن شيء قبيح لدرجة تدعو للغثيان.

fb/mashro3pdf

(٣٧)

سافرت إلى لندن، وعدت كما ذهبت. التقيت أصدقائي وسلمى القدامى هناك، لم تتحسّن حالتي ولم أشعر بالراحة.

أينما أذهب، تذهب معي سلمى وجدّتي، وأخيراً ظهرت معهما أيضاً صديقتي القديمة هنريت. تقف في مدخل شقتي صامتة، كما عادتها. «هنريت؟!» صرخت.

«نعم... عزيزي دافيد.. أنا هنريت...».

وضعت يدي على عينيّ. أغمضتهما قليلاً، وفتحتهما مجدداً، وهي لاتزال واقفة مكانها.

شبح آخر وإرهاق جديد، ولاأزال على قيد الحياة. تساءلت إن كان عليّ اللجوء إلى الطبيب أو الاتصال بهيخو على الأقل. لم أفعل أي شيء من هذا، فكرت، ربما هنريت ستعلّمني طريقة جديدة أقتل بها نفسي وأُنهي هذه المهزلة:

«هنريت... أريد أن أموت... أقصد أن يموت جسدي... أريد لهذا الجسد، الدماغ، العقل، الروح أو سمّها ما شئتِ أن يرتاح إلى الأبد... كل مَن أتمسك به لأظلّ عالقاً في هذه الحياة يرحل ... ألم يكن أمام الموت سوى سلمى؟ ... هنريت... قولي لي كيف لي أن أموت؟».

صوتي كان عالياً إلى درجة أن رينا ضغطت على جرس الباب.

«هل أنت بخير، عزيزي؟».

fb/mashro3pdf

«ريناتا، ابقي معي أرجوكِ» قلت لها، خفت من شبح هنريت، لا أعرف لماذا!. كانت الساعة عندها الثانية بعد منتصف الليل. ظلّت ريناتا حتى الصباح معي.

نامت على الأريكة، وأنا جلست على الكرسي المجاور لها. أنظر بثبات إلى الممر. ولا تزال هنريت تقف متسمرة في مكانها وتنظر نحوي.

حضّرت لي ريناتا القهوة، ورتّبت الشقة، ثم طلبت منها الانصراف «شكراً لك عزيزتي، يمكنك الذهاب، أنا بخير الآن» أخبرتني ريناتا بأنها ستذهب في رحلة إلى الفلبين مع صديقتها وأختها. «هل تريد أن تأتي معنا؟» ... «لا» أجبتها بسرعة. حينها قرأت في وجهها أنها قد يئست مني تماماً.

ذهبت نحو هنريت، اقتربت منها، لا تزال تقف في مدخل الشقة، وبعدها لم أقترب أكثر، عدت إلى مكاني. خرجت من المنزل حتى المساء. كانت هنريت تجلس على الكرسي الذي أجلس عليه دائماً. الهاتف كان يرنّ، كان صديقي بيتر، سمعت رسالته «دافيد، كيف حالك؟ سأسافر مع زوجتي إلى فرنسا لأسبوعين و...» لم أسمع الباقي. فصلت خط الهاتف.

«لماذا أنتِ هنا؟» سألت هنريت بغضب. «أين سلمى؟ سلمى .. سلمى .. جدّتي ... أوما...» صرخت وأنا أحدّق بها. لم يجبني أحد. ضحكت هنريت، ضحكتها كانت مستفزّة، وقحة. «لم تكوني هكذا...».

«لقد أحرقت نفسي...» قالت أخيراً.

فكّرت أن أخرج من المنزل. لكني لا أعرف إلى أين سأذهب، كلهم رحلوا، فرنسا، الفلبين... فكرت حينها أن أصعد إلى السيدة العراقية، لا أعرف لماذا خطرت في بالي هذه المرة، لكني لم أفعل ... مَن يهتمّ لأمري؟.

«الحبوب المنوّمة التي جلبها معه كمال إلى سلمى عندما كانت تعاني

fb/mashro3pdf

من الإرهاق، هل تذكرت؟ لا تزال هناك كمية منها في حقيبة السفر الكبيرة في المخزن... هيا، اذهب .. اقتل نفسك، هيا، ماذا تنتظر؟!! هياااا».

نزلت من شقتي، كانت الساعة هي التاسعة مساء. أتمشّى في الشوارع، لا أعلم كم من الوقت استغرق ذلك، لكني عندما عدت، ذهبت مباشرة إلى المخزن، حقيبة السفر الكبيرة الحمراء، فتحتها، ووجدت كيساً من الحبوب، هذا هو إذن... كان هناك خمس علب من نفس الدواء. أخذتها معي، وعدت إلى شقتي.

وجدت جدّتي تجلس على الأريكة، والى جانبها هنريت.

fb/mashro3pdf

(٣٨)

«آمنة، سأناديك آمنة، ما رأيك؟» ابتسمت له عندما قال لي ذلك. لقاؤنا كان دائماً في المكتبة. لكنه طلب مني عدة مرات زيارة شقته لمشاهدة لوحاته ورسوماته. «لماذا الخوف؟ عادي» قال عباس. آخر مرة قال لي ذلك كان غاضباً بعض الشيء «تعالي مع سارة وأحمد وخلود والجيران لو أحببتِ...». في نفسي أود لو أذهب معه فوراً إلى شقته لمشاهدة رسوماته، شرب القهوة، وربما يحدث شيء مما أتخيله كل يوم. ليته يلحّ قليلاً، يجرّني من يدي مثلاً، ويأخذني معه «عندما يزورنا أحمد، سنأتي إلى زيارتك، أعدك بذلك...» قلت له أخيراً.

فكرة زيارته تدور في رأسي.

- «طلب مني عباس زيارته، هل دخلتِ شقته؟» سألتُ سارة.

- «نعم، رأيت لوحاته، شربت قهوة معه. شقته جميلة ومرتّبة».

- «متى حدث ذلك؟».

- «لمّا كنتِ في العراق. ماما، لماذا كل هذه الأسئلة؟» ومع سؤال سارة هذا، كان هناك أسئلة أخرى كثيرة في عينيها، لم أفهمها.

- «لا هيچ...»(*) أجبتها، وتحولت إلى المطبخ.

سارة كانت تجهّز نفسها للذهاب إلى أمستردام. وجدت عملاً هناك،

*) لا هيچ: هكذا، لا شيء.

fb/mashro3pdf

ستكون قريبة من أحمد، وسأكون وحدي مرة أخرى. وحدي؟ لست وحدي تماماً هذه المرة. أصبح لعباس مكان في حياتي الآن.

ارتديت ثوباً لم أرتده من قبل، وجدته معيباً عندما اشتريته، كان اختيار سارة. ثوب جميل، أعجبني أنا أيضاً، لكنْ... أخجل أن أرتديه «عيب...» فكرت وأنا أجرب الثوب بعباس، وتمنيت أن يراه ويعجبه. فكرة زيارة شقته الآن لا تبدو غريبة و«مو عيب...».

لا أعلم من أين أتت هذه الجرأة... وكيف؟

نزلت إلى شقته، كل درجة أقف عليها وأفكر، أضبط شالي، أعدّل ثوبي، وأمضي، وأقف، وأمضي ... حتى وصلت باب شقته.

ضربت جرس الباب، كنت قد رتّبت حجّة لزيارتي، أن أقول له بأني أريد التمشّي في الحديقة العامة القريبة، وأتحدث له قليلاً عن وحدتي بعد مغادرة سارة المنزل.

فتحت لي الباب امرأة، حفظتها جيداً في دقائق. ترتدي تنورة سوداء قصيرة جداً وضيقة جداً. تضع كحلاً حول عينيها الخضراوين، ورموشها كثيفة جداً، وتضع أحمر شفاه، أحمر جداً، شعرها أشقر، منكوش، غير مرتّب، مع تي شيرت أحمر بدون أكمام يُظهر الكثير من صدرها المجعّد إلى درجة مقرّزة، كعب عالي، وجهها مجعّد أيضاً، وكانت تحاول تثبيت قرطها الكبير في إحدى أذنيها، والآخر كان بيدها.

- «هالو...» قالت وهي تهز رأسها، كأنها تسأل لماذا أنتِ هنا؟ ماذا تريدين؟

- «داخ...» أجبتها، وربما لم تسمعني «هل عباس هنا؟».

- «هو في الحمام الآن؟ سأخبره عندما يخرج بزيارتك... لكنْ عذراً مَن أنتِ؟» كان صوتها خشناً مثل صوت رجل، لكنها تتغنّج وهي تنطق كل كلمة.

fb/mashro3pdf

- «قولي له جارتك آمنة» وأدرت ظهري لها، وصعدت الدرج بسرعة.

استندت على الجدار وأنا أصعد الدرج. خجلت من نظرة المرأة لي، كانت تنظر لي بسخرية، من فوق إلى تحت. لن يرى عباس ثوبي الجديد. هناك امرأة أخرى، أخرى جداً عني. شعرت أن قلبي سيقف، لم أعد أرى أي شيء أمامي، لكني وصلت شقتي أخيراً.

جلست وقتاً طويلاً على الأريكة أمام التلفزيون، وفي رأسي صورة واحدة فقط. صورة تلك المرأة. نزعت ثوبي وأنا لا أزال أجلس على الأريكة، ولا يزال الشال على رأسي. نظرت للثوب، كما لو أني أنظر إلى نفسي، قبل أن أرميه على الأرض مثل ورقة كتبت عليها سخافاتي ورميتها بعد أن قرأتها من جديد. ذهبت إلى غرفتي، أخرجت بيجامتي من الدولاب، وارتديتها. أما الثوب، رميته في سلة المهملات.

رميت آمنة التي حاولت أن تكون امرأة ولم تفلح بذلك طوال حياتها.

fb/mashro3pdf

(٣٩)

دافيد حبيبي:

أعـرف بأنـي سـأموت قريبـاً، لكنـي سـعيدة جـداً. أنـا أسـعد امـرأة بـك. أعـدك أنـي سـأظل معـك. لـذا أرجوك، لا تـؤذِ نفسـك. أعـرف بأنك قـوي. كمـال وأمّي سـيكونان معـك، لا تخجـل كعادتـك، اطلـب المسـاعدة منهمـا، همـا يحبانـك جـداً وأنـت تعلـم ذلـك.

لـو اسـتطعت أن تبيـع لوحاتـي، اجمـع النقـود وأرسـلها إلى العـراق، كمـا كنـا نفعـل أنـا وأنـت، لا تحتفـظ بـشيء منـي، مـن أغـراضي، أعلـم بـأن هـذا سـيرهقك. مـا ينفع مـن حاجياتـي قدّمـه كهدايـا، وإلا أعطـه إلى كمـال وأمّي. والأشـياء الثمينـة جـداً أعطهـا إلى أمّـي فقـط. لكـنْ كتاب «الشريـف الـرضي» احتفـظ بـه لنفسـك. تسـكن هـذا الكتـاب روحـي وروح أبـي. احتفـظ بـه.

لـم أتخيـل أنـي سـأموت أيضـاً هنـا. كنـت أتمنـى أن نعيـش أنـا وأنـت وأهـلي في العـراق. أن نمـوت هنـاك، كمـا يجـب لـكل مَـن يعيـش في وطنـه أن يمـوت فيـه. طـوال حياتـي معـك، لـم أخـبرك أنـي كنـت هنـا وهناك. كنـت معـك هنـا ومعـك هنـاك. هنـاك في بغـداد. أنـت شـعرت بذلـك أيضـاً، شـعرت بـأن التعايـش والاندمـاج مـع المجتمـع كان صعبـاً جـداً عـليّ في كثـير مـن الأحيـان، وكنـت تشـعر بالذنـب لذلـك، أعلـم بأنـك كنـت تحـاول مسـاعدتي عندمـا تقـول لي بأننـا لسـنا بحاجـة إلى أحـد،

fb/mashro3pdf

وأن العالم بالنسبة لك هو «أنا وأنتِ فقط» هل تذكر؟

أنا بخير عندما أموت، هل يجب أن أقول لك ذلك؟ أنت تعرف أني بخير. وسأكون معك. سأبقى دائماً معك. حبيبي دافيد.

سلمى ١٨- ٤- ١٩٩٨

fb/mashro3pdf

(٤٠)

بعد ساعة، كان عباس يقف أمام باب شقتي. فتحت الباب، ونظرت مباشرة إلى قدميه. حذاؤه أسود، لونه باهت. حذاء إبراهيم لونه أسود أيضاً، يلمع، كان يحرص على نظافة ومظهر حذائه. فكرت بحذاء إبراهيم، وأشياء كثيرة أخرى عنه وأنا أنصت جيداً إلى عباس:

«آمنة، أعلم بأنك غاضبة الآن... أرجوك حاولي أن تفهميني... لقد دخلتِ قلبي، وأشعر بميل نحوك، وأرتاح لوجودي معك... ولكنْ.... أنا رجل ولي احتياجاتي... أنتِ متحفّظة جداً، أنا أفهم ذلك.... لويزا صديقتي.. منذ زمن طويل... أحياناً تأتي لزيارتي وأحياناً أخرى أذهب لها.... أنا رجل و...» كأنه يريد أن يذكّرني بشيء لم أعرفه إلا لما رأيت تلك المرأة في شقته. هو رجل... رجل... رجل ويجب أن تكون في حياته امرأة مثل لويزا.

بقيت أنظر إلى حذائه. توقّف عباس عن الكلام قليلاً، وقال:

«بعد أن تهدئي، سأعود للحديث معك. آمنة، لا تغضبي مني و...».

«لا أريد أن أراك مرة أخرى...» قاطعته.

«لا أريد أن أراك مرة أخرى، أرجوك».

كنت أكذب. أرتجف وأنا أقول له ذلك. خائفة من أني لن أراه مرة

fb/mashro3pdf

أخرى، خائفة من عدم اهتمامه، وأن ينفّذ ما قلت، ما طلبته منه. لكنْ ماذا لو قلت له ابقَ، أرجوك؟ لا شيء، لن يتغيّر شيء. أنا لا أشبه لويزا.

لا أدري إن كان قد ذهب أم لا، لكني أغلقت الباب وعدت إلى الأريكة أمام التلفزيون، وأنا أرتجف، من الخوف، من أني لن أراه بعد الآن.

fb/mashro3pdf

(٤١)

بعد موت سلمى، شعرت بالوحدة. الوحدة التي لم أعرفها من قبل. في المستشفى، كنت بين حي وميت بسبب الدواء. استجبت لأوامر الأطباء أملاً في خروجي منها بسرعة، كما وعدني هيخو. المرحلة التالية في العلاج تكفّل بها هيخو في عيادته الخاصة في أمستردام. وسكنت في شقة أجرها هيخو أيضاً لي قريبة من عيادته. كان يقوم بكل شيء. وفعل كل هذا بحب. غالباً ما كنت أستغرب من هذا الحب، العطاء دون مقابل. «لماذا تفعل هذا من أجلي؟».

«لأنك تستحق ذلك، دافيد» أنظر له بود، يبتسم لي، لكني غير مقتنع، ولماذا أستحق ذلك؟ لقد كنت بعيداً عن عائلتي طوال حياتي. هارباً منهم.

استسلمت للحياة من جديد. لم يكن لدي خيار آخر. لا أعرف كيف كان يمضي يومي، لكني كنت، أحياناً، أنسى حتى سلمى، وأنظر في الفراغ، أتأمل الفراغ، لا أرى شيئاً، لا أفكّر بشيء سوى الفراغ. بين حي وميت.

كنت بعيداً عن جميع المرضى، حتى في جلسات المرضى الجماعية. لا أطيق سماع شكوى الناس، لذا لم أنصت لهم، كنت حاضراً غائباً. وهربت من هذه الجلسات بحجة: «تصيبني بالغثيان. تزيدني كآبة ورغبة في الانتحار».

لم يكن لدي الكثير لأتحدث عنه، حتى مع هيخو، وهو يحاول انتزاع أحداث حياتي مني ليصل إلى أصل المشكلة. لم يكن للمشكلة أصل، ولا جذور. كل ما هنالك أني: «لا أستطيع العيش دون سلمى».

fb/mashro3pdf

«الحياة يجب أن تستمر...» يردد هيخو وآخرون.

«لا أريد لها أن تستمر، هكذا ببساطة ...» لكنها استمرت رغم أنفي.

انتقلت إلى أوترخت، إلى شقتي هذه. السكن كان قريباً من منزل صديقي بيتر وهذا هو المطلوب. حمل صديقي بيتر معه أشياء من شقتي القديمة، أشياء تخص سلمى وتخصني «أيامك الجميلة مع سلمى لا يجب أن تخاف منها بعد الآن» قال بيتر وهو يمد يده بالرسائل المربوطة بشريط أحمر، ربطتها سلمى بنفسها ووضعتها في صندوق خشبي جميل أهدته له والدتها. الصندوق اختفى وظلّت الرسائل، ومن بينها رسالة أمّي التي لن أقرأها أبداً.

بعد أيام من سكني في هذه الشقة، رأيت سلمى لأول مرة بعد موتها، وجدّتي، أحيانا معاً، وأحياناً أخرى كل واحدة على حده، لم يفاجئني وجودهما، حتى وجودهما معاً. أعرف أنهما ميتتان، لكني لا أريد الاعتراف بذلك. لذا ظهور أشباحهما ليس مفاجئاً. كان هذا أفضل علاج لي، حتى لو كان وهماً، مرضاً، لا يمكن التخلص منه، إلا بالموت الذي بقيت أرجوه وأتمناه كل يوم حتى تحقّق لي ذلك.

بين حي وميت، أُنصت، فقط، إلى الموسيقى، وأفهمها. أنصت إلى موسيقى تشيكوفسكي، شوبان، فيفالدي، كما كانت تنصت لها سلمى وهي ترسم، وتقرأ. أجلس على كرسي خشبي قرب النافذة وأقلب بكتاب الشريف الرضي الذي كانت تضعه دائماً على طاولة السرير، تقرأ منه بين الحين والآخر، تقرأ بصوت عالٍ، لا أفهم شيئاً منه، وأفهم كل شيء منه، تماماً كالموسيقى. أغفو بين الحين والآخر بسبب الدواء أو الملل، فأسمع صوتها واضحاً وهي تقرأ من شعر الرضي:

وَبي شَوْقٌ إلَيْكَ أعَلَّ قَلْبي وَمَا لي غَيرَ قُرْبِكَ مِنْ طَبيبِ

fb/mashro3pdf

كيف استطاعت سلمى، تلك الفتاة البسيطة أن تغيّرني هكذا؟ لو أني أستطيع العودة لبعضٍ من دافيد قبل لقائي بها، الشرب، الحانات، النساء، السفر، لعلّ هذه الأشياء تنسيني موتها، تجعلني رجلاً عادياً، طبيعياً، رجلاً ينسى.

لكن هذا مستحيل.

fb/mashro3pdf

(٤٢)

ركبت القطار في اليوم التالي، وذهبت إلى أمستردام. رتّبت مع سارة شقتها الجديدة. اقترح أحمد أن أنتقل إلى أمستردام «لا داعٍ لوجودك هناك وحدك بعد الآن».

في طريق العودة إلى شقتي، كنت أفكر كثيراً، لا أسمع ماذا يقول أحمد، وعند وصولنا كنت قد اتخذت قراري بالفعل مرة أخرى «سأذهب إلى الناصرية» قلت لأحمد. «سأعود إلى العراق». خلال ثلاثة أشهر رتّب أحمد كل شيء لذلك.

عباس عرف من أحمد قرار سفري، حاول الاتصال بي، وعندما لم أجبه، أرسل لي رسالة نصية. «أريد مقابلتك في المكتبة قبل السفر» لم يحدث هذا. رغم رغبتي الشديدة في لقائه والحديث معه مرة أخرى، لم أذهب. كلما تذكّرته تذكّرت لويزا.

كان مجرد وهم. وهم تشبّثت به.

لوحة سلمى ظلّت في شقّة سارة. كتب دافيد وذكرياته حملتها معي في الحقيبة. وبقي أمامي شيء واحد فقط. أن أعرفه أكثر.

مساءً، ارتديت شالي بسرعة ونزلت إلى شقة ريناتا. دون تفكير.

فتحت لي الباب، بعد أن بقيت لدقائق طويلة أنتظر، ربما كانت مترددة.

«هالو».

- «داخ. أريد الحديث معك، ممكن؟» قلت لها.

fb/mashro3pdf

- «الآن!».

- «لو سمحتِ».

ترددت كثيراً قبل أن تمدّ يدها مشيرة لي بالدخول وتفتح الباب أكثر.

- «تفضّلي».

بيتها منظّم جداً. الجدران مليئة بصور أولادها وأحفادها. لوحة مرسومة تتوسّط الحائط، ألوانها رائعة ومنسجمة مع ألوان الغرفة. وشموع مضيئة في كل مكان.

«ماذا تشربين؟» سألتني قبل أن تجلس «لا شيء، أريد الحديث معك فقط، عن دافيد...» عندما سمعت اسمه، سمحت لنفسها بالجلوس، كأنها تعبت فجأة وأرادت أن تستريح، تبدّلت ملامحها الباردة إلى حزينة.

«دافيد» رددت. «وماذا تريدين أن تعرفي عنه؟ ولماذا؟» قالت بحزن شديد وهي تضع يديها بين ساقيها المضمومتين.

طلبت منها أن تقول لي كل ما تعرف عنه، أخبرتها عن أغراضه التي حملتها من الشارع، عن كتاب الشريف الرضي والرسائل ولوحة سلمى. كانت تعرف «نعم، لقد رأيتك...».

ريناتا، أيضاً، تحتفظ بأشياء من دافيد، أخذتها من شقته، «سرقتها» قالت، وأخذت من أغراضه التي رميت في الشارع. «الورثة عبثوا بأغراضه، أخذوا ما ينفعهم وتركوا الباقي، تخلّصوا منها، هنا وهناك...».

أخذت ريناتا سترته التي كان يرتديها، كرسيه الخشبي الهزّاز، عكّازه وبيجامته. «أنا أيضاً... أخذت ما ينفعني» نزلت دموعها وهي تقول ذلك.

بقيت أنصت لها لساعات، قالت كل شيء عنه، كل ما تعرفه، ماعرفته منه ،من مراقبته، من صديقه بيتر ومن أقربائه.

fb/mashro3pdf

«لم يحضر أحد من أهله، أخته وأخوه ظهرا فجأة كوريثين، لا أعرف إن كان دافيد يملك شيئاً يستحق أن يرثه أحد .... لكن هيخو يحبه كثيراً، وكان حزيناً على ما حدث، كان يلوم نفسه على موت عمّه، كان يحبه فعلاً».

ودعتني ريناتا عند الباب. لم تكن هي ريناتا ذاتها عند مغادرتي، لقد تحوّلت إلى امرأة أخرى عند حديثنا عن دافيد. «اعتني بنفسك» وفتحت ذراعيها لتحضنني.

عند خروجي من شقتها وقفت أمام شقة دافيد وتذكّرت جثته. لم أتذكّر عباس وصديقته. عباس كان وهماً.

«آه يا دافيد، لو كنت أستطيع أن أخبرك كم غيّر موتك حياتي».

دافيد هو الحقيقة.

fb/mashro3pdf

(٤٣)

والآن، أنا ممدّد على سريري. أرتدي كل ملابسي وحذائي. لم أترك رسالة. وضعت علب الدواء إلى جانبي، وبهذا سيحزرون أني انتحرت. ليست المحاولة الأولى. ولن يتفاجأ أحد على ما أظن.

كل أغراض سلمى أعطيتها لكمال. إلا أشياء قليلة ربما غفلت عنها. هنا وهناك. هربت منها، ربما، ونسيتها.

وجه أمّي. تذكّرت الآن وجه أمّي. أخذت منها عيني الزرقاوين وابتسامتي. تقف الآن أمامي، تنظر لي وتبتسم. لماذا الآن أمّي؟ اختفت الأصوات التي تعالت وزادت سرعتها وتداخلت مع بعضها عند ابتلاعي الدواء: «اقتل نفسك ... هيا.. ماذا تنتظر؟!».

سكتت فجأة.

حياتي. حياتي كلها أراها الآن أمامي مثل مشهد واحد، يوم واحد. أصبحت خفيفاً من عبئها، شعرت بذلك. لي أن أُحلق الآن. أهرب من حياتي. لأني عرفتها. كما فعلت دائماً. «أهرب من كل شيء أعرفه».

هل أرى سلمى قريباً؟ بعد قليل؟ هل سنتحول إلى فراشتين، عصفورين؟ كما كانت تروي لي جدّتي، بأنها كلما اشتاقت لجدّي، يأتي لها على هيئة فراشة، أو عصفور، وكانت تتحدث معه عن كل شيء.

«لم أكن أراه في الحرب. اختفى تماماً. ظننت أنهم قتلوه. الحرب تقتل كل شيء. ومن جديد، تقتل الموتى أيضاً. الحرب مستمرة» كانت تقول. كم أشبه جدّتي!.

fb/mashro3pdf

هل أنا مثل جدّتي؟ عاشق؟ مجنون؟ هارب كبير؟ خائف عظيم؟ أم مجرد إنسان؟

أظن أني كنت كل هذا.

لم أترك وصية أيضاً. ليس لدي ما أوصي به. ربما كان عليّ أن أوصي، أو أُعطي لوحة سلمى في المخزن وكتاب الشريف الرضي والرسائل إلى بيتر. لكنْ لا بأس. روح سلمى تسكن الكتاب، كما قالت لي، ستعرف طريقها إذن، سترعى نفسها وأشياءها.

كانت حياتي يوم وانتهى. هكذا أراها الآن. وحياتي مع سلمى يوم آخر لن ينتهي. سأذهب إليها الآن. حالاً.

أغمضت عينيّ. وتوقّف كل شيء. إلا صوت أمّي.

أسمع، بوضوح، صوت أمّي.

«دافيد، ولدي، لقد اشتقت لك».

fb/mashro3pdf

(٤٤)

في غرفة صلاح. أحاول النوم، ولكن الماضي عاد كله، صور، صور، صور، تتناثر في وجهي. وآخرها صورة لويزا، وصورة ريناتا. وبعدها صور طفولتي، صور صلاح.

صلاح كان يلاحظني، يراني. لم أكن مسرورة بذلك دائماً. أتذكّر أنه دخل غرفته فجأة ورآني أمسك ديوان نزار قباني بيد والمكنسة باليد الأخرى. لم يقل شيئاً، نظر لي بطرف عينه عابساً: «هاي شنو؟»(*) تركت الكتاب فوراً، ولم أقرأ منه أي شيء.

رآني، وأنا أرقص خلسة في غرفتي على أغنية لعبد الحليم، كنت وحدي في البيت، ونسيت الباب موارباً. نظر لي، ابتسم وأغلق الباب.

رآني، وأنا انظر من الشباك لعبد الرحمن وهو يجلس وحده في الحديقة بانتظار علاء. رأيت شيئاً من ظهره وهو يغادر غرفة الضيوف.

رآني، وأنا أبكي وحدي في السطح، لا أتذكّر السبب، لكنه جاء نحوي :«ها! ... ها! .. شبيج(**)؟» وضع يديه على كتفيّ وكان يحاول النظر في عينيّ. «ماكو شي»(***) قلت له. لم يتركني إلا وأنا أضحك.

تعبت من تقليب هذه الصور في رأسي. كان الوقت فجراً، صعدت إلى البيتونة. جلست هناك إلى الطاولة. أنظر من الشباك إلى حديقة المنزل.

---

*) هاي شنو؟: ما هذا؟

**) شبيج؟: ما بك؟

***) ماكو شي: لا شيء.

fb/mashro3pdf

منذ عودتي إلى العراق وأنا أجلس معظم الوقت هنا، أقرأ. أنام، أحياناً، على الأريكة ولا أشعر بنفسي. لست سعيدة، لكني أفضل الآن.

لم أركّز في القراءة، لذا خرجت إلى السطح. التفت إلى سطح جارنا، عبد الرحمن. وقفت هنا كثيراً أنتظره لأسمع صوته، لأعرف أنه موجود على الجانب الآخر من الجدار. مجرد أن أشعر به قريباً. كنت جادة جداً حينها في مشاعري نحوه. عندما أتذكّر ذلك الآن، لا يبدو لي ما فعلته حماقة أو مراهقة. كان حبّاً.

«أم أحمد؟» سمعت صوت عبد الرحمن، وبيننا جدار عالٍ «أم أحمد؟ ... آمنة؟ تسمعيني؟ أريد أحچي وياچ(*)... محتاج أحچي وياچ».

*) أحچي وياچ: أتحدث معك.

fb/mashro3pdf

(٤٥)

ولدي العزيز دافيد:

كتبت لك هذه الرسالة لأني شعرت بأني سأموت قريباً، ولأنك لم تستجب دعوتي ودعوة زوجي وأخوتك وخالتك لزيارتي. لا ألومك يا حبيبي على ذلك. لكن هذه الرسالة هي أملي الوحيد إليك. أتمنى أن تقرأها بسرعة وتأتي لزيارتنا.

ولدي الكبير، طفلي الكبير. هناك أشياء لم أخبرك بها. لم يكن الوقت والظروف تسمحان بذلك. كنت أريد أن أقول لك كم أنا فخورة بك. لقد اعتنيت بجدّتك وكنت حفيداً باراً بها، ولد ذكي ومجتهد في المدرسة، يسعى لتحقيق طموحه. أنا فخورة بك ولدي.

كنت أريد أن أُخبرك بأن خلافي مع والدك ليس ذنبك. أنا وهو لم نكن متّفقين في أي شيء. لقد عشقنا بعضنا. جدّتك عارضت الزواج بشدة، وكانت على حق. كان أبوك مدمناً على الكحول، خسر عمله عدة مرات، وأخيراً اتجه إلى القمار. كنت أعاني من أخلاقه ومغامراته كل يوم. كل هذا ليس ذنبك.

أنت تعلم كم أحبك، كم حاولت أن أبقيك إلى جانبي، تعيش معي، مع أخوتك، لكنك فضلت البقاء بعيداً

fb/mashro3pdf

عنـي، مـع جدّتـك. لـم يكـن لي أن أرفـض ذلـك، كنـت سـعيداً معهـا. وهـذا مـا أريـده أنـا وجدّتـك.

سـؤال يـتردّد في عقـلي وأود لـو أعـرف إجابتـه منـك. دافيـد، ولـدي، هـل تكرهنـي؟

مـا تفعلـه يجعلنـي أفكّـر في ذلـك. لكـنْ أعلـم أنـي قـد بذلـت أقـصى مـا أسـتطيع لأكـون أمـاً صالحـة لـك. زوجـة صالحـة لأبيـك. أن تسـير حياتنـا معـاً. صدّقنـي يـا ولـدي، لـم أفعـل ذلـك مـن أجـل نفـسي، لـم أتخـلَّ عـن والـدك، هـو مَـن أراد هـذه الحيـاة واختارها لنفسـه. لا ذنـب لأحـد في ذلـك.

كنـت أود أن أقـول لـك وأنـا أنظـر إلى وجهك، إنـي أحبك. كـم أنـا بحاجـة إليـك الآن، لتغفـر لي، لتمنـح روحـي السـلام. هـذا كل مـا أطلبـه منـك. أن أراك.

رغـم وجـود الجميع حـولي ينقصنـي وجـودك أنـت، بُنيّ، ولـدي دافيـد. سـأصلي مـن أجـل أن تقـرأ الرسـالة وتأتي لي سريعـاً، أن تأتـي إلى أمّـك التـي أحبّتـك كثـيراً ولـم تعـرف كيـف تصـل إليـك. أرجـوك دافيـد، تعـال قبـل أن تغـادر روحـي هـذه الحيـاة إلى الأبـد.

وإن لـم تـأتِ، فاعلـم أنـي أحبـك. وأنـي لا ألومـك عـلى شيء. وأرجـو أن تغفـر لي. اغفـر لي دافيـد. سـامحني.

شانتال

fb/mashro3pdf

«... وإنما كان أشعر قريش؛ لأن المجيد منهم ليس بمكثر، والمكثر ليس بمجيد، والرضي جمع بين الإكثار والإجادة».

أحمد عباس الأزهري

(من مقدمة ديوان الشريف الرضي الجزء الأول) ١٣٠٧هـ

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

ميادة [illegible] العراق ١٧٩١.
حاصلة على [illegible] ية من الجامعة
التكنولوجية ١٩٣ [illegible] عام ١٩٩٥.

ترجمت الكثير [illegible] دبية، والشعر والحوارات
وكتبت قراءات لكتب [illegible]. ترجمت كتاب «الروائي
الساذج والحساس» لـ أورهان باموق، الذي صدر مؤخراً
عن منشورات الجمل ٢٠١٥.

المتوسط

fb/mashro3pdf

تتحدث هذه الرواية عن آمنة التي تجد في دافيد سر حياتها. فهي سيدة عراقية أرملة في الخمسين من عمرها تعيش في هولندا، أما دافيد فهو هولندي في السبعين من عمره يعاني من الوحدة بعد وفاة زوجته العراقية سلمى التي التقاها في لندن، وقد تغيرت حياته كلياً معها، ولم يعد بإمكانه الحياة من دونها. فينهي حياته انتحاراً، وعن طريق بعض أغراضه التي تُرمى في الشارع تتعرف آمنة على قصته، لكنها تتعرف في الوقت ذاته على نفسها. وتكتشف ماضيها من جديد، حتى تتخذ قراراً بالعودة النهائية إلى بلدها.

أما الشريف الرضي فهو الخيط الخفي الذي يربط حياة بطلي الرواية، بل جميع شخوصها ومن خلال قصائده سنمر بجميع المحاور التي تناقشها الرواية برشاقة وعمق بميزان أسلوب ميادة خليل الدرامي والمتدفق. ومعها سنعيد اكتشاف أفكار عديدة مثل فكرة الموت، والحرب وآثارها على شخصية الإنسان، وارتباط الإنسان بذكرياته التي تتقدم معه في العمر وتعود معه للبحث عن الوطن، أو ربما فكرة الوطن التي لا علاقة لها بالمكان، وربما أيضاً فكرة الهروب الى عالم أفضل.

ISBN 978-91-87373-67-1
9 789187 373671
المتوسط

fb/mashro3pdf